اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

محمد كامل حسنة

لبيك

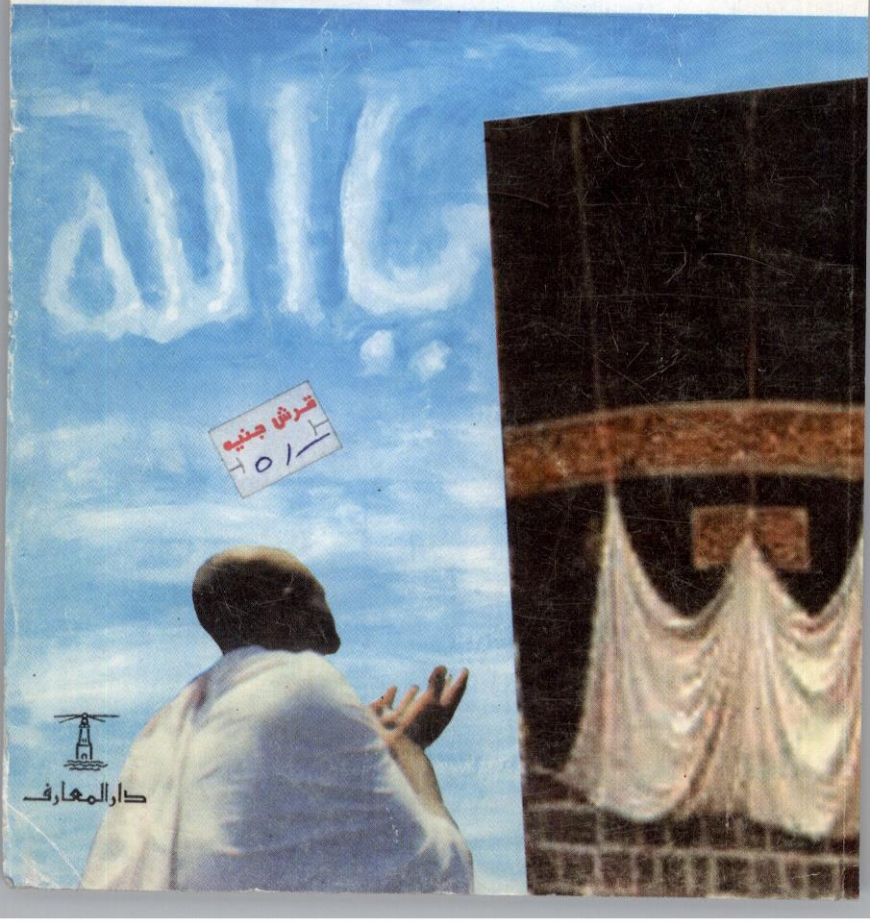

دار المعارف

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٢٦٨]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : **عزيزة مختـار**

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

محمد كامل حته

لبيك

الطبعة الرابعة

دار المعارف

إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فـى شـىء واحـد ، هو نشر الثقـافة مـن حيـث هـى ثقافـة ، لا يريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشـعوب العربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تدعوهـم هذه القـراءة إلى الاسـتزادة مـن الثقافـة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقـى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الحج: الآيات: ٢٧-٣٠)

مقدمة

حين فرغ إبراهيم من بناء البيت العتيق[1]، توجه ببصره إلى السماء وهو يقول: يارب، قد فرغت..

فتلقى الوحى أن «أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»..

قال – فى ضراعة وإشفاق: يارب، وما يبلغ صوتى!

قال: إنما عليك الأذان وعلىّ البلاغ..

وصدع الشيخ بأمر ربه، وأرسل صوته الضعيف بالأذان لا يكاد يسمع رجع صداه. ولكن كلمة الله نفخت فى هذا الصوت الواهن، فإذا به يبلغ من وراء الغيب مستقر الأرواح فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وإذا من بين هذه الأرواح من تضج بالهتاف:

– لبيك اللهم لبيك..

فليس حاج يحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة، إلا من أجاب دعوة إبراهيم من وراء الغيب البعيد..

ذكرت هذه القصة وأنا أستمع إلى من يحدثنى فى التليفون:

---

(١) الكعبة.

- أنت مدعو لأداء فريضة الحج هذا العام..

قلت، وأنا فى غمرة الدهشة والسرور:

- كيف، ولم يبق على موعد الحج إلا بضعة أيام؟!

قال: نعم، وإنك لرفيقى فى هذه الرحلة المباركة، فخذ لها أهبتك العاجلة.

قلت: إذن، هى دعوة إبراهيم، عرفت اليوم أن روحى قد استجابت لها من وراء الغيب البعيد..

***

وأخذت أعد العدة لهذه الرحلة المباركة. وشغلت نفسى بالرجوع إلى كتب الفقه والحديث والتفسير، أتحرى فيها أحكام الحج، ولقيت فى ذلك كثيرًا من الجهد وتعدد الأقوال والآراء، وألفيت نفسى أزداد أمية كلما ازددت جريًا وراء هذه الأقوال والآراء..

وقلت فى نفسى:

- إن الحج، وهو فريضة تقوم على التجرد والبساطة، لا يمكن أن يكون على هذه الصورة المعقدة المتراكبة التى تصورها أقوال كثير من الفقهاء والشرّاح.

وإن كثيرًا من هؤلاء وغيرهم قد وقع فى أوهام زادت الأمر تعقيدًا وبلبلة. وقد نبه الإمام ابن قيم الجوزيه إلى ما وقع فيه بعض العلماء والفقهاء من هذه الأوهام..

وليس أدل على سماحة الإسلام ويسره - مع التزام الأصول العامة،- من قول عبد الله بن عمر فى أعمال الحج يوم عرفة، عن الرسول - ﷺ :

- ما رأيته سئل - ﷺ - يومئذ عن شىء إلا قال: افعلوا ولا حرج..

وقول عبد الله بن عباس:

- إنه قيل له - ﷺ - فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير، قال: لا حرج.

وقول أسامة بن شريك:

خرجت مع النبى ﷺ حاجًا، وكان الناس يأتونه فمن قائل: يا رسول الله، سعيت قبل أن أطوف، أو أخرت شيئًا وقدمت، فكان يقول: لا حرج، لا حرج؛ إلا على رجل اعترض عِرض رجل مسلم وهو ظالم، فذلك الذى حرجَ وهلك[1] .

وأديت فريضة الحج مستلهمًا روح التجرد والبساطة، متحريًا ما صح عن الرسول - ﷺ - من أفعال وأقوال. ثم أديت العمرة بعد ذلك عدة

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد صفحة ٢٢٨ من الجزء الأول.

مرات، وتجمعت لدىّ خلال ذلك من التجارب العلمية والعملية، والدراسات التاريخية والأدبية، ومن التجاوب الروحى.. حصيلة أرجو أن أجلوها فى هذا الكتاب، هدية لضيف الله من حجاج بيته الحرام، وإلى الذين يشاركونهم بأرواحهم وقلوبهم هذه الرحلة المباركة، يلتقون معهم - على البعد - يوم العيد الأكبر مهللين مكبرين..

محمد كامل حته

من حديث الرسول

قال – ﷺ:

«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

أفضل الأعمال

عن أبى هريرة – رضى الله عنه قال:

– سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل؟

قال: إيمان بالله ورسوله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: ثم جهاد فى سبيل الله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: ثم حج مبرور.

جهاد الضعيف والكبير والمرأة

عن الحسن بن على رضى الله عنهما: أن رجلا جاء إلى النبى – ﷺ – فقال: إنى جبان، وإنى ضعيف.

فقال: هلم إلى جهاد لا شوكة فيه.. الحج.

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

- قلت يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟

قال: لكُنَّ أفضل لجهاد.. حج مبرور.

وعنها رضى الله عنها أنها قالت:

- قلت يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟

قال: لَكِنَّ أحسنَ الجهاد وأجملَه.. الحج، حج مبرور.

الحج يهدم ما قبله

عن عمرو بن العاص قال:

- لما جعل الله الإسلام فى قلبى، أتيت رسول الله ﷺ فقلت:

- ابسط يدك فلأبايعك.

قال: فبسط، فقبضت يدى!

فقال: مالك يا عمرو؟

قلت: أشترط.

قال: تشترط ماذا؟

قلت: أن يُغفر لى..

قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله!

وينفى الفقر والذنوب

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

– تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة.

الحجاج وفد الله

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

الحجاج، والعُمَّار، وفد الله. إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم.

الحج جزاؤه الجنة

عن أبى هريرة قال:

– قال رسول الله ﷺ: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

الحجاج فى ضمان الله

عن جابر رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

– هذا البيت دعامة الإسلام، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر، كان مضمونًا على الله، إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده.. رده بأجر وغنيمة.

الحجة المفروضة

عن أبى هريرة قال:

- خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها النـاس، إن الله كتـب عليكـم الحج فحجوا.

فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟

فسكت..

قال الرجل: أكل عام يا رسول الله؟

فسكت..

قال الرجل: أكل عام يا رسول الله؟

قال ﷺ:

- لو قلت نعم، لوجبت، ولما استطعتم.

ثم قال: ذرونى ما تركتكم؛ فإنما أهلك من كـان قبلكـم كـثرة سـؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه مـا اسـتطعتم. وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

- خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج.

فقام الأقرع بن حابس فقال:

- أفى كل عام يا رسول الله؟

فقال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا. الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع.

من أراد فليعجل

عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

من أراد الحج فليعجِّل؛ فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتكون الحاجة.

الحج عن الوالدين

عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت:

- إن أمى نذرت أن تحج، ولم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟

قال: نعم، حجى عنها. أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قَاضِيتَهُ[1]؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء.

عن الفضل بن عباس، أن امرأة من خثعم قالت:

يا رسول الله: إن فريضة الله على عباده فى الحج، أدركت أبى شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟

قال: نعم.

---

(١) أى تقومين بسداد هذا الدين.

لا اقتراض للحج

عن عبد الله بن أبى أوفى قال:

– سألت رسول الله ﷺ عن الرجل لم يحج، أيستقرض للحج؟

قال: لا.

الحج عن الغير

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

– إن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: لبيك عن شُبْرُمَة. فقال:

– أحججت عن نفسك؟

قال: لا.

قال: فحج عن نفسك ثم حج عن شبرمة.

الحج من المال الحرام

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال:

– إذا خرج الحاج حاجًا بنفقة طيبة، ووضع رجله فى الغرز [1] فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك. زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور [2].

---

(١) ركاب الرجل.

(٢) من الوزر أى الإثم.

وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز فنادى: لبيك.. ناداه منـاد من السماء: لا لبيـك ولا سعديك، زادك حـرام، ونفقتـك حـرام، وحجك مأزور غير مأجور.

التكسب والكراء

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

– إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذى المجاز ومواسم الحج، فخافوا البيع وهم حرُم. فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

فأمروا أن يتَّجروا إذا أفاضوا من عرفات.

وعن أمامة التيمى أنه قال لابن عمر رضى الله عنهما:

– إنى رجل أكرى[1] فى هذا الوجه. وإن ناسًا يقولـون لى: إنـه ليس لك حج.

فقال ابن عمر: أليس تحرم، وتلبـى، وتطـوف بـالبيت، وتفيـض مـن عرفات، وترمى الجمار؟

قال: قلت بلى.

---

(١) أؤجر دابتى فى هذه الجهة.

قال: فإن لك حجا. جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى، فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية.. فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية، وقال: لك حج.

كثر خير الله وطاب

عن أنس رضى الله عنه قال:

- وقف النبى ﷺ (بعرفات) وقد كادت الشمس أن تئوب، فقال: يا بلال، أنصت لى الناس.

فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ.

فأنصت الناس.

فقال ﷺ.

- معشر الناس: أتانى جبريل عليه السلام آنفًا، فأقرأنى السلام، وقال: إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات، وأهل المشعر الحرام، وضمن عنهم التبعات..

فقام عمر بن الخطاب فقال:

- يا رسول الله: هذا لنا خاصة؟

فقال: هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة..

فقال عمر رضى الله عنه:

كثر خير الله وطاب!

كيف حج الرسول ؟

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه:

– إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن فى الناس فى العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاج..

فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة..

فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد، ثم ركب «القصواء»[1] حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك. ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شىء عملنا به.

فأهلّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك..

---

(١) اسم ناقة الرسول.

قال جابر: لسنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة. حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن[1]، فرَمَل[2] ثلاثا، ومشى أربعا. ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ:

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.

فجعل المقام بينه وبين البيت.

فكان يقرأ فى الركعتين:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا.

فلما دنا من الصفا قرأ:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [3]

أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا إله إلا لله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) ركن الكعبة الذى به الحجر الأسود.

(٢) هرول.

(٣) ربوتان بالقرب من الكعبة يكون بينهما السعى.

ثم دعا بين ذلك. قال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى سعى، حتى إذا صعدنا مشى. حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا.. حتى إذا كان آخر طوافه على المروة، فقال:

- لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهَدْى، وجعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل، وليجعلها عمرة.

فقام سراقة بن مالك فقالَ:

- يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟

فشبك رسول الله ﷺ أصابعه، واحدة فى الأخرى، وقال:

- دخلت العمرة فى الحج (مرتين) لا.. بل لأبد أبد.

وقدم علي من اليمن ببُدْن[1] النبى ﷺ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل، ولَبست ثيابًا صبيغا، واكتحلت. فأنكر ذلك عليها فقالت: إن أبى أمرنى بهذا.

قال: فحل[2] الناس كلهم وقصروا[3]، إلا النبى ﷺ، ومن كان معه هدى.

***

فلما كان يوم التروية (الثامن من ذى الحجة) توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج. وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب

---

(١) إبل.

(٢) حلوا إحرامهم.

(٣) قصوا شعر الرأس.

والعشاء والفجر. ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة[1].

.. فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِّلَتْ[2] له، فأتى بطن الوادى، فخطب الناس وقال:

– إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع[3]، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعًا فى بنى سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا.. ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أما بعد، أيها الناس! فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا. ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون[4] من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنما النسىء[5] زيادة فى الكفر يضَل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله

---

(١) مكان شرقى عرفات.

(٢) وضع عليها رحلها وأعدت للركوب.

(٣) مهدر.

(٤) تستصغرون.

(٥) النسىء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، فقد كان المشركون إذا هل شهر حرام وهم محاربون استمروا فى حربهم وأبدلوا أيامه فى شهر آخر.

ويحرّموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان.

واتقوا الله فى النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله. وأنتم تسألون عنى، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت..

فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ويردها مشيرًا إلى الناس:

- اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد..

ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا.

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة وظل يدعو حتى غربت الشمس.

عن على رضى الله عنه قال:

– قال رسول الله ﷺ: إن أكثر دعاء من كان قبلى من الأنبياء، ودعائى يوم عرفة أن أقول:

– لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

اللهم اجعل فى بصرى نورًا، وفى سمعى نورا، وفى قلبى نورًا.

اللهم اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى.

اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج فى الليل، وشر ما يلج فى النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق[1] الدهر.

***

وأردف رسول الله ﷺ أسامة خلفه، ودفع من عرفات إلى مزدلفة، وكان يقول:

أيها الناس: السكينة، السكينة..

حتى أتى مزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا.

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة.

---

(١) مهلكات.

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده. فلم يزل واقفًا حتى أسفر[1] جدًا.

فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف[2] الفضل بن عباس، وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين.. فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر.

حتى أتى «بطن محسر» [3] فحرّك قليلا، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف. رمى فى بطن الوادى. ثم أنصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بيده.

فلما أكمل رسول الله ﷺ نحره، استدعى بالحلاق وهو معمر بن عبد الله، وقال له وهو قائم على رأسه بالموسى:

– يا معمر، أمكنك رسول الله من شحمة أذنه وفى يدك الموسى..

قال معمر: أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله علىّ.

---

(١) أسفر الصبح: أضاء.

(٢) أركبه خلفه.

(٣) مكان بين منى ومزدلفة، كان فيه هلاك أصحاب الفيل، ولهذا أسرع الرسول وهو يختازه.

قل: أجل.

وحلق للرسول شعر رأسه، وحلق كثيرون من الصحابة، وقصر بعضهم. وقد دعا - ﷺ - للمحلقين بالمغفرة ثلاثًا وللمقصرين مرة.

***

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض[1] إلى البيت. وبعد أن طاف بالبيت طواف الإفاضة شرب من ماء زمزم، وصلى الظهر. ثم رجع إلى منى فبات بها. فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة، يقول مع كل حصاة: الله أكبر. ثم يقدم على الجمرة فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلا..

ثم أتى إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك. ثم انحدر ذا اليسار مما يلى الوادى فوقف مستقبل القبلة رافعًا يديه يدعو، قريبًا من وقوفه الأول.

ثم أتى الجمرة الثالثة، وهى جمرة العقبة، فاستبطن الوادى[2] واستعرض الجمرة[3]، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات كذلك.

فلما أكمل الرمى رجع من فوره.

---

(١) اندفع، نزل.

(٢) وقف ببطن الوادى.

(٣) استقبلها.

وخطب ﷺ الناس بمنى خطبتين، إحداهما يوم المنحر والأخرى فى اليوم التالى وهو أوسط أيام التشريق[1].

قالت سرى بنت نبهان:

– سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتدرون أى يوم هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا وسط أيام التشريق.

– هل تدرون أى بلد هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا المشعر الحرام. ثم قال:

– إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد هذا..

ولما أكمل – ﷺ – الرمى فى أيام التشريق الثلاثة، أفاض بعد الظهر إلى المحصب، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ورقد رقدة ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلا سحرًا، ونادى بالرحيل فى أصحابه فارتحل الناس.

---

(١) أيام التشريق هى يوم النحر (عيد الأضحى) واليومان الثانى والثالث.

من فقه المناسك

الحج هو قصد مكة المكرمة لأداء عبادة الطواف بالكعبة المشرفة بيت الله الحرام، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، وأداء المناسك الأخرى عند المشعر الحرام، ورمى الجمار والنحر، وطواف الإفاضة وطواف الوداع..

قال ﷺ:

كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم.

وقال: إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، لإقامة ذكر الله عز وجل.

وقد فرض الحج سنة ست بعد الهجرة، حيث نزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ [1] فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ [2] وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ [3] فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

---

(١) أحصرتم: منعتم بسبب عدو أو مرض.

(٢) الهدى: ما يذبح فى الحج من الإبل أو البقر أو الغنم.

(٣) محله: مكان النحر.

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ[1] فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ[2] وَلَا فُسُوقَ[3] وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ[4] فَإِذَآ أَفَضْتُم[5] مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ[6] وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ

---

(١) نسك: ذبيحة.

(٢) الرفث: مباشرة النساء، أو فحش القول.

(٣) الفسوق: الخروج على حدود الشريعة.

(٤) أباحت هذه الآية التجارة فى موسم الحج.

(٥) أفضتم: نزلتم.

(٦) كانت قريش تفيض من المزدلفة ترفعا عن سائر الناس، فنزلت الآية تأمرهم بالإفاضة من عرفات.

ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة البقرة: الآيات: ١٩٦-٢٠٣)

ويجب أداء الحج إذا توافرت خمسة شروط: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية والاستطاعة.

وأول أعمال الحج الإحرام. وهو نية الحج أو العمرة، أو هما معًا. ولا يشترط التلفظ بذلك فإن النية محلها القلب.

ومن سنة الإحرام: الاغتسال، والتطيب، والتجرد من الثياب المخيطة ولبس إزار ورداء، وصلاة ركعتين بنية الإحرام.

والإحرام ثلاثة أنواع:

١ - القران: وهو أن يحرم بالحج والعمرة معًا، فيؤدى العمرة والحج لا يتحلل من إحرامه قبل أن يفرغ منهما جميعًا.

٢ – التمتع: وهو أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج، فيدخل مكة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يتحلل من إحرامه. حتى إذا كان يوم التروية عاد فأحرم من مكة بالحج.

٣ – الإفراد: وهو الإحرام بالحج وحده.

ما يباح للمحرم

● **الاغتسال:**

عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه دخل خمام الجحفة وهو محرم. قيل له:

– أتدخل الحمام وأنت محرم؟

فقال: إن الله ما يعبأ بأوساخنا شيئًا.

وعن جابر رضى الله عنه قال: يغتسل المحرم، ويغسل ثوبه.

● **لبس التبان:**

عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت لا ترى بالتبان[1] بأسًا. وقال الحافظ: هذا رأى رأته عائشة..

● **نقض الشعر وامتشاطه:**

روى مسلم أن النبى ﷺ أمر عائشة فقال:

انقضى رأسك وامتشطى.

---

(١) التبان: سروال قصير.

وقال النووى: نقض الشعر والامتشاط جائزان فى الإحرام بحيث لا ينتف شعرًا.

● **تغطية الوجه:**

كان عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، ومروان بن الحكم.. يخمرون وجوههم وهم محرمون.

● **لبس الخفين للمرأة:**

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان قد رخص للنساء فى الخفين.

● **تغطية الرأس عن نسيان:**

لا شىء على من غطى رأسه ناسيًا، أو لبس قميصه ناسيًا - عند الشافعى. وعليه الفدية عند أبى حنيفة.

● **الحجامة، ونزع الضرس:**

ثبت أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم وسط رأسه.

وقل مالك: لا بأس للمحرم أن يفقأ الدمل، ويربط الجرح، ويقطع العرق إذا احتاج.

وقل ابن عباس: المحرم ينزع ضرسه، ويفقأ القرحة.

● **حك الرأس والجسد:**

عن عائشة أنها سئلت عن المحرم يحك جسده؟

قالت: نعم.

● **النظر فى المرآة، وشم الريحان:**

عن ابن عباس قال: المحرم يشم الريحان، وينظر فى المرآة، ويتداوى بأكل الزيت والسمن.

● **شد الهميان، ولبس الخاتم:**

قال ابن عباس: لا بأس بالهميان[1] والخاتم للمحرم.

● **الاكتحال:**

قال ابن عباس: يكتحل المحرم بأى كحل إذا رمد، ما لم يكتحل بطيب، ومن غير رمد.

● **الاستظلال:**

قال عبد الله بن عامر: خرجت مع عمر رضى الله عنه، فكان يطرح النطع على الشجرة فيستظل به وهو محرم.

وعن أم الحصين رضى الله عنها قالت:

– حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة بن زيد وبلالا، وأحدهما آخذ بخطام ناقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، حتى رمى جمرة العقبة.

● **قتل الحشرات المؤذية:**

عن عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال:

---

(١) الهميان: هو ما يشد على الوسط لحفظ النقود.

خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور.

محظورات الإحرام

- **الرفث:** الجماع ودواعية كالتقبيل واللمس لشهوة..
- **الفسوق:** اقتراف المعاصى.
- **الجدال:** مخاصمة الرفقاء وغيرهم..

قال تعالى:

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾

(البقرة: الآية: ١٩٧)

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال:

من حج ولم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

- **لبس المخيط للرجل:**

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال:

- لا يلبس المحرم القميص، ولا العمامة. ولا البرنس، ولا السراويل. ولا ثوبًا مسه ورس[1] ولا زعفران، ولا الخفين إلا ألاَّ يجد نعلين ما حتى يكونا أسفل من الكعبين.

---

(١) الورس: نبت أصفر طيب الرائحة يصبغ به.

ويجوز لمن لم يجد الإزار والرداء أو النعلين أن يلبس ما يجد؛ عن ابن عباس أن النبى ﷺ خطب بعرفات وقال:

- إذا لم يجد المسلم إزارًا فليلبس السراويل، وإذا لم يجد النعلين فليلبس الخفين..

● **النقاب والقفازان للمرأة:**

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

- نهى النبى ﷺ النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب، وما مس الورس والزعفران من الثياب. ولتلبس بعد ذلك ما أحبت من ألوان الثياب من معصفر، أو خزّ، أو حلى، أو سراويل، أو قميص، أو خف.

ويجوز للمحرمة ستر الوجه إذا خافت الفتنة..

قالت عائشة:

- كان الركبان يمرون بنا، ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها، فإذا جاوزوا بنا كشفناه.

● **عقد النكاح:**

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

- لا ينكح المحرم ولا ينكح، ولا يخطب.

● **تقليم الأظافر وإزالة الشعر:**

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾.

(البقرة: الآية: ١٩٦)

ويحرم قلم الظفر بلا عذر، فإن انكسر فللمحرم إزالته بغير فدية. ويجوز إزالة الشعر إذا تأذى به المحرم، وعليه فدية.

قال تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: الآية: ١٩٦)

● **التطيب:**

عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما وجد ريح طيب من معاوية وهو محرم، فقال له:

– ارجع فاغسله؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحاج الشَّعِثُ التَّفِلُ.

● **التعرض للصيد:**

يحرم صيد البر. ويجوز للمحرم صيد البحر.

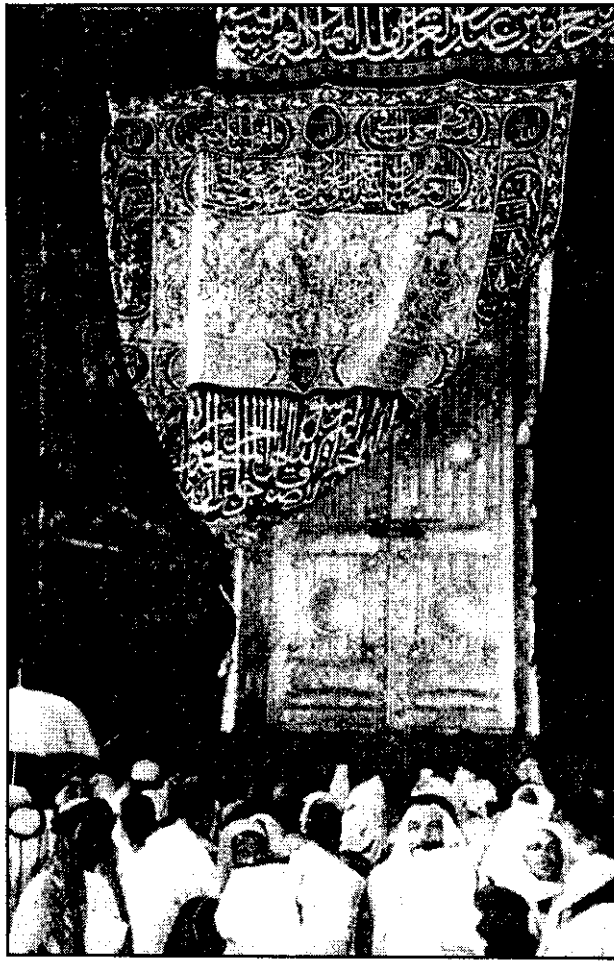

قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

ويجوز للمحرم أن يأكل من لحم الصيد الذى لم يصده هو، أو لم يصده أحد له..

عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

- صيد البر لكم حلال وأنتم حرم، ما لم تصيدوه أو يصد لكم.

فدية المحرم

لا يبطل الحج أو العمرة بارتكاب شيء من المحظورات إلا فى حالة واحدة، هى الجماع. وفيما عدا ذلك تكون الفدية وهى واحدة من ثلاث:

- **ذبح شاة.**
- **إطعام ستة مساكين، كل مسكين نصف صاع.**
- **صيام ثلاثة أيام.**

عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عجرة، أن رسول الله ﷺ مر به زمن الحديبية فقال:

- قد آذاك هوام رأسك؟

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٩٦.

قال: نعم.

فقال النبى ﷺ:

– احلق: ثم اذبح شاة نسكًا. أو صم ثلاثة أيام. أو أطعم ثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين.

وجزاء قتل الصيد: ذبح مثل ما قتل فى قيمته والتصدق بلحمه. أو التصدق بقيمة ثمنه طعامًا، فيطعم كل مسكين مدا. أو الصيام أيامًا بعدد المساكين الذين يستحقون الصدقة.

لبيك اللهم لبيك !

.. واستيقظت مع الفجر أتأهب للرحلة المباركة. فاغتسلت، واختلقت، وتطيبت. ثم أخذت لباس الإحرام، ونويت العمرة، وأديت الصلاة.

وودعت أهلى وولدى، وقد طغت على مشاعرى أشواق أقوى من حرارة الوداع..

ثم غادرت منزلى بحلوان وأنا فى لباسى الأبيض غير المخيط، ونعلى المكشوف، وفى عدتى الخفيفة الوافية؛ وأنا أشبه ما أكون بالنافر إلى ميدان الجهاد، وقد انطلقت فى إثرى الدعوات والزغاريد.

مواقيت الحج

وقد أحرمت بالمنزل لأنى كنت قد تهيأت للسفر بالطائرة، والإحرام بها غير ميسور؛ إذ يصعب على المسافر بها تحديد مكانها من «الميقات» وليس الأمر كذلك بالنسبة للمسافر بالبر أو البحر،إذ يحرم هؤلاء كل عند ميقاته. وهذه المواقيت هى:

● **ذو الحليفة** – ميقات أهل المدينة. وهو موضع بينه وبين مكة ٤٥٠ كيلو مترا.

الجحفة – ميقات أهل الشام ومصر. وقد ذهبت معالمها، وأصبحت «رابغ» القريبة منها هي الميقات. وبين رابغ ومكة ٢٠٤ كيلو مترات.

● **قرن المنازل** – ميقات أهل نجد. وهو جبل شرقي مكة يطل على عرفات، وبينه وبين مكة ٩٤ كيلو مترًا.

● **يلملم** – ميقات أهل اليمن. وهو جبل يقع جنوبي مكة. وبينهما ٥٤ كيلو مترًا.

● **ذات عرق** – ميقات أهل العراق. وهو موضع في الشمال الشرقي من مكة، وبينهما ٩٤ كيلو مترًا.

وهذه المواقيت لأهل البلاد المذكورة، ولمن مرّ بها. قال ﷺ: «هن لهن، ولمن أتى عليهن من غيرهن؛ ممن أراد الحج أو العمرة».

ومن كان بمكة وأراد الحج، فميقاته منازل مكة. وإن أراد العمرة فميقاته «الحل» يخرج إليه ويحرم منه. والحل أدناه إلى مكة «التنعيم» وهو مكان يبدأ عنده الحد الشمالي للحرم، وبينه وبين مكة ٦ كيلو مترات.

قال ابن حزم: ومن كان طريقه لا يمر بشيء من هذه المواقيت. فليُحرم من حيث شاء..

وقد جعل الله ميقات أهل المدينة أبعد هذه المواقيت عن الحرم، لتزيد رقعة الإحرام؛ فيزداد أهلها استمتاعًا بمشاعر الإقبال على بيت الله الحرام، ويزداد ثوابهم على قدرما ازداد من تحملهم مشاق الرحلة وقيود الإحرام.

وقال عبد الله بن عامر والى البصرة على عهد عثمان، إن عثمان – رضى الله عنه – كان فى «نيسابور» حين قال له أحد خاصته، وقد امتدت الفتوحات الإسلامية فى عهده إلى أبعد الآفاق.

– يا أمير المؤمنين، لم يفتح الله لأحد ما فتح عليك!

فقال: لا جرَمَ لأجعلن شكرى لله أن أخرج محرمًا من موقفى هذا..

فهل كثير علىَ – وقد أكرمنى الله بدعوته هذه لحج بيته الحرام – أن أقبل عليه محرمًا من دارى بحلوان؟!

فى الطائرة

وأقلتنا الطائرة من مطار القاهرة ظهر يوم الأربعاء السابع من ذى الحجة، وحين أخذت الطائرة مجراها فى الفضاء، عكفت على كتاب الله أتلو من آياته، وقد تملكنى شىء من الزهو أشبه ما يكون بالعبادة؛ إذ تمثلتنى فى مقامى هذا ملكًا يترنم بالتسابيح فى معارجه بين الأرض والسماء!

وما هى إلا ساعات ثلاث، حتى هبطت بنا الطائرة فى مطار جدة، ونحن نردد جميعًا الهتاف فى شوق وإيمان:

– لبيك اللهم لبيك!

وكم تمنيت لو أمكنتنى فسحة الوقت من أن يكون سفرى إلى جدة بالباخرة؛ حتى يكون استمتاعى بأشواق الرحلة أشمل وأعمق. إن الأيام

التى يقضيها الحاج فى الباخرة بين حل وإحرام، تمثل مرحلة جميلة من مراحل أداء هذه الفريضة، تستيقظ فيه مشاعره، وتستبق خواطره مشوقة نحو البلد الحرام والبيت الحرام، ومثوى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكما جعل الرسول - ﷺ - ميقات أهل المدينة أبعد المواقيت عن الحرم، ليزداد أهلها استمتاعًا بمشاعر الإقبال على بيت الله الحرام؛ فإن السفر بالباخرة يعطى الحاج فرصة زمانية أطول مما تعطيه الطائرة للاستمتاع بهذه المشاعر الجميلة.

إن الباخرة منذ تغادر ميناء السويس باسم الله مجراها ومرساها، حتى تبلغ ميناء جدة بعد نحو ٦٠ ساعة، أشبه ما تكون بمحراب يمخر العباب. فما أحد من ركابها إلا وهو راكع أو ساجد أو مستغفر آناء الليل وأطراف النهار، أو مهل بالتلبية عند كل خطوة يخطوها أو عمل يأتيه: لبيك اللهم لبيك!

صور من الماضى

وتذكرت فى هذه النقلة الخاطفة التى اجتزنا فيها ما بين القاهرة وجدة فى ثلاث ساعات بالطائرة، ما كان يعانيه الحجاج فى الماضى البعيد من طول الرحلة ومخاطر السفر، حين كانت الوسائل بدائية والطريق محفوفًا بالمخاطر. ومع ذلك كله كان الحجاج من أقصى أقطار الأرض يؤمون البيت الحرام مستجيبين لدعوة إبراهيم، هاتفين: لبيك اللهم لبيك!

ومنذ القرن الأول للهجرة كانت مصر هى طريق الحجاج من إفريقية والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط، والبلاد الإسلامية فى أوربا وآسيا. كانوا يحضرون من بلادهم برًا وبحرًا إلى مصر، فيجتمعون بها قبل شهر رمضان، ثم يسيرون منها إلى «قوص» بالبر أو البحر، فيقطعون المسافة بينهما - ومقدارها ٦٤٠ كيلو مترًا - فى نحو ٢٠ يومًا. وتبدأ القوافل من قوص سيرها مخترقة الصحراء الشرقية فى طريقها إلى «عيذاب» أو «القصير» على ساحل البحر الأحمر. وطول هذا الطريق ١٦٠ كيلو مترًا، تقطعه القوافل فى ١٥ يومًا.

وكانت كل من عيذاب والقصير ميناء لمصر على البحر الأحمر منذ قديم الزمان. والطريق إلى القصير يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، افتتحه رمسيس الثالث، فكان طريقًا للتجارة بين مصر والهند وبلاد العرب. كما كانت القصير فى عهد البطالسة هى الميناء الوحيد الذى يصل التجارة بين البحر الأبيض والمحيط الهندى.

وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب أو القصير نحو شهر، انتظارًا للسفن الشراعية التى تحملهم إلى جدة. وكان على كل حاج أنْ يدفع ضريبة مرور قدرها عشرة جنيهات لاثنين يحكمان هذه المنطقة: أحدهما مندوب عن شيخ قبائل البجة التى تسيطر على الصحراء الشرقية، والآخر مندوب عن حاكم مصر. وكان هذان الحاكمان يقتسمان حصيلة هذه الضرائب مع أمير مكة، إلى أن أبطل صلاح الدين عام ٥٩٠ هـ هذه الضريبة وغيرها من المكوس التى كانت تفرض على الحجاج..

ثم يستقل الحجاج من ميناء القصير أو عيذاب السفن الشراعية. وكانت سفنًا صغيرة غير محكمة الصنع. أغلب أشرعتها من الحصير.. وكان أصحابها يحملونها أكثر مما تطيق من الحجاج طمعًا فى زيادة ما يحصلون عليه من أجر. فيتعرض كثير من هذه السفن للغرق. وبعد ١٥ يومًا يقضيها الحجاج فى رحلتهم هذه المحفوفة بالمخاوف والأخطار، يصلون إلى ميناء جدة وهم على حال أى حال!

وقد حج ابن جبير الأندلسى عام ٥٧٩ هـ فقطع المسافة بين القاهرة وجدة عن هذا الطريق فى نحو شهرين ونصف شهر. وسجل فى رحلته هذه ما عاناه فى البر والبحر من أهوال..

وأراد ابن بطوطة الحج عام ٧٢٥ هـ فسافر من القاهرة إلى عيذاب، فلم يجد هنالك سفينة تحمله إلى جدة؛ فقد حدثت آنئذ موقعة بين الترك والبجة أحرقت فيها جميع السفن التى كانت فى الميناء. فعاد ابن بطوطة إلى القاهرة، ومنها إلى الشام، حيث سافر مع قوافل الحج الشامية فى السنة لتالية!

وظل طريق القصير وعيذاب هو الطريق الوحيد للحجاج حتى عام ٦٤٥ هـ حين سافرت شجرة الدر مع قافلة الحجاج بالبر لأول مرة عن طريق «العقبة». وازدادت أهمية هذا الطريق منذ عام ٦٦٠ هـ حين سيَّر الظاهر بيبرس منه قافلة الحجاج. ومن ثمة بدأ طريق الحج يتحول من البحر إلى البر عن هذا الطريق. وكانت المسافة بين القاهرة ومكة عن هذا الطريق تقطعها القوافل فى نحو ٥٠ يومًا. وكان بعض الحجاج يسافرون

بالبحر عن طريق السويس إلى جدة، فتبلغها المراكب الشراعية فى نحو ثلاثة أسابيع.

.. فأين هذا كله مما صار إليه طريق الحج الآن؟

رحلة ممتعة بالباخرة مدتها ٦٠ ساعة..

أو رحلة خاطفة بالطائرة لا تتجاوز ثلاث ساعات!

فى الأرض الطيبة

ها نحن أولاء نخطو خطواتنا الأولى على الأرض الطيبة وئيدة متهيبة. تلك الأرض التى كانت مسرحًا لأروع حوادث التاريخ، وأخلد ملاحم الإنسانية..

هذه الأرض التى تروى ذراتها تاريخًا طويلا زاخرًا بصور البطولة، وألوان الكفاح والانتصار، ومصارع الشهادة فى سبيل الحق والمثل الأعلى. وتتردد فى أجوائها أصداء بعيدة قريبة، لتلك الانتفاضة الروحية القوية التى انشق عنها ضمير الوجود منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، فغيرت معالم التاريخ، وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق..

إن طوفانًا من المشاعر والأحاسيس يحتوينى، ويملك على الروح والقلب الواعية، فإذا أنا أعيش فى جو تزدحم فيه صور التاريخ حية نابضة، وتختلط فيه مشاعر التجرد والعبودية، وأشواق التلبية والإقبال على الله.

إنها نقلة روحية بعيدة، تفصل المرء عن حياته تلك التى كان يحياها وهو يصارع «الدوامة» التى تلف الحياة والأحياء، وتقذف به إلى حياة جديدة، تنفخ فى روحه شحنة لا عهد له بها من المشاعر والأحاسيس..

إنه يستدبر تلك الحياة المضطربة الصاخبة، بما فيها من أعباء وهموم، وروابط وتقاليد، قد تجردت نفسه عن ذلك كله، كما تجرد جسمه إلا عن لباس الإحرام. ويستقبل حياة أخرى تتلاشى فيها هذه المعالم، وتتبدل الأقدار والموازين.

وقد يكون فى هذا التصوير كثير من الرمزية والغموض، وإنه لكذلك تصوير لا يطيق مزيدًا من الإبانة والإفصاح، لأن الإحساس بتلك الصور المزدحمة الغلابة، لا يستطيع أن يتبين حدود هذه الصور ودقائقها فى إحاطة ووضوح، ولا أن يستوعب كل ما يتمثل فيها من ألوان وظلال..

وأخرجنى من هذا الاستغراق فى مطالع الحياة الجديدة، وأنا أخطو خطواتى الأولى على الأرض الطيبة، صوت الرائد وهو يقول:

هلم إلى البلد الحرام..

إلى أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعاملين..

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران: الآيات: ٩٦. ٩٧)

إلى مكة

.. وحملتنا السيارة إلى مكة بعد الغروب، وانطلقت بنا فى طريقها المهد تطوى الأرض فى سرعة خاطفة، ولكنها لم تكن مع ذلك أسبق من أشواقنا المتوثبة فى حرارة وانطلاق..

وعادت الصور المزدحمة الغلابة تستغرق مشاعرى من جديد، وقد أطبق الظلام على الكون، فلا تنفرج فيه إلا ومضات خاطفة ترسلها مصابيح السيارات فى انطلاقها السريع. وكنت أحس أن السيارة لا تنطلق بنا فى طريقها من جدة إلى مكة، ولكنها توغل فى رحلة إلى أعماق التاريخ، وأنها لا تطوى الأرض وإنما تطوى السنين والحقب والأجيال..

وحين بلغنا (الشميسى) وبينها وبين مكة ١٥ كيلومترًا — وقفت بنا السيارة عند مخفر للشرطة. وقد بدا على الطريق ما يشبه البوابة الكبيرة، لا يمر منها راكب أو راجل إلا بعد أن يتعرف عليه الشرطة ثم يسمحوا له بالمرور.

إنه حد من حدود الحرم لا يتجاوزه إلا مسلم. وحدود الحرم تحيط بمكة من جميع جهاتها. وقد نصبت عليها أعلام مبنية فى خمس جهات:

- **التنعيم** – وتقع شمالى مكة وبينهما ٦ كيلومترات.
- **أحناء** – من جهة الجنوب، وبينها وبين مكة ١٢ كيلومترًا.
- **الجعرانة** – من جهة الشرق، وبينها وبين مكة ١٦ كيلومترًا.

• **وادى نخلة** – من جهة الشمال الشرقى بينه وبين مكة ١٤ كيلومترًا.

• **الشميسى** – وهى مكان الحديبية التى تمت عندها بيعة الرضوان..

بيعة الرضوان

وكانت قد انقضت ست سنوات منذ الهجرة. والمسلمون فى المدينة يتحرقون شوقًا إلى زيارة الكعبة حاجين أو معتمرين، ولكن قريشًا كانت تحول دون ذلك وتوصد فى وجوههم أبواب البلد الحرام فى الأشهر الحرم، وتصدهم عن أداء مناسك الحج والاعتمار دون سائر العرب، حتى يعودوا إلى ملتهم تلك ويشاركوهم عبادة الأصنام التى كانت تزخر بها الكعبة فى تلك الأيام..

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾

(سورة الفتح: الآية: ٢٧)

وسار الرسول فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من القبائل ممن لبسوا على دينه. وأحرم بالعمرة إيذانًا للناس ولقريش بأنه لا يريد قتالا وإنما خرج زائرًا ومعظمًا لبيت الله الحرام فى الشهر الحرام..

ولقى الرسول فى طريقه رجلا من بنى كعب فسأله عن أخبار قريش فقال:

– قد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا..

ونادى الرسول فى الناس:

– من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟

وارتاد رجل بهم طريقًا وعرة حتى وصلوا إلى الحديبية. فنزل بها الرسول وصحبه، وقال – ﷺ – إيثارًا للسلم:

– لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها..

وأوفد إليهم عثمان بن عفان فأبلغهم رسالته..

قالوا: يا عثمان، إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله. إنما جئنا لنزور البيت العتيق، ولنعظم حرمته، ولنؤدى فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهدى معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام.

ولكن قريشًا لجت فى عنادها، وأصرت على ألاَّ يدخل محمد مكة هذا العام..

وطالت غيبة عثمان، واشتد القلق عليه أن تكون قريش قد غدرت به فقتلته فى الشهر الحرام..

وعندئذ قال الرسول لأصحابه، وقد وقف تحت شجرة فى الوادى:

- لا نبرح حتى نناجز القوم.

فتقدموا جميعًا يبايعونه على ألاَّ يفروا حتى الموت!

إنها بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفتح: الآية: ١٨)

.. وإنهم لكذلك فقد بايعوا وباعوا أرواحهم فى سبيل الله، وإذا عثمان يعود إليهم، فكأنما كانت غيبته تلك وما تركت فى نفوسهم - من مظنة الغدر به، وإصرار قريش على القتال فى الشهر الحرام وصدهم عن البيت الحرام - امتحانًا لإيمانهم وصبرهم على الجهاد فى سبيل الله، خرجوا منه بالرضا والرضوان.

وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له:

- ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا. فوالله لا تحدثُ العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا..

وكان سهيل يشتط فى شروط الصلح، فيستجيب له الرسول، فتضيق بذلك صدور المسلمين..

معاهدة الحديبية

وفى ذلك اليوم عقدت معاهدة الحديبية، على وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين. وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم ذاك، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه. وبذلك حقنت الدماء وتحقق السلام..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

(سورة الفتح: الآية: ٢٤)

وفى طريق العودة نزل قوله تعالى[1]:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

(سورة الفتح: الآيات: ١ : ٣)

وقد تحقق الفتح المبين، وتحققت الرؤيا التى رآها الرسول من قبل.

---

(١) هذه الآيات وما قبلها وما بعدها من سورة الفتح التى نزلت فى الطريق إلى المدينة بعد الانصراف من الحديبية.

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الفتح: الآية: ٢٧)

فما انقضى على معاهدة الحديبية هذه عامان حتى نقضها أهل مكة. وكان المسلمون قد ازدادوا قوة ومنعة، فتم فتح مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا..

وظلت الشجرة التى تمت فى ظلها بيعة الرضوان إلى عهد خلافة عمر رضى الله عنه. وأوشك الناس أن يحيطوها بشىء من القداسة، فأمر عمر بقطع الشجرة، ويقوم الآن فى مكانها — على يسار الذاهب إلى مكة — مسجد البيعة، أنشأه السلطان محمود خان عام ١٢٥٤هـ، ومكتوب على قبلته: (هذا مسجد بيعة الرضوان، مأثرة من مآثر حبيب المنان، الفقير إلى رحمة الرحمن، السلطان محمود خان).

فى المسجد الحرام

.. واجتازت بنا السيارة حد الحرم عند الشميسى بالقرب من الحديبية. وغمرتنا نشوة قدسية ونحن ندخل حرم الله ومأمن أضيافه. حتى إذا لاحت لنا من بعيد أضواء مكة وجبالها الشاهقة. هتفنا من الأعماق:

الله أكبر .. لبيك اللهم لبيك!

ودخلنا مكة مكبرين مهللين، وقصدت المسجد الحرام فدخلته من باب السلام وأنا أقول كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

– أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم.

واستقبلتنى الكعبة بأستارها السوداء تغمرها الأضواء، فرفعت يدىّ فى هتاف ونشوة أقول:

اللهم زد هذا البيت تشريفًا ، وتعظيما ، وتكريما، ومهابة، وبرًّا. وزد من حجه أو اعتمره تشريفًا، وتعظيمًا، وتكريما، ومهابة، وبرًّا..

نعم، هذه الكعبة يكتحل بمرآها ناظرى، وتنتشى روحى، ويخبت قلبى، وتخشع جوارحى..

هذا الرمز الخالد الذى يجمع حوله القلوب، من عهد إبراهيم إلى أن تقوم الساعة، رمز التوحيد والعبودية لله وحده..

هذه الكعبة بيت الله، وقبلة المسلمين فى جميع أقطار الأرض حين يمثلون أمام الله فى الصلاة.

هذه الكعبة التى لا تخلو لحظة من لحظات الدهر، إلا وحولها طائف أو راكع أو ساجد..

واجتذبتنى موجة الطواف التى لا تهدأ ولا تفتر، فإذا بى ذرة متجردة هائمة فى ذلك الملأ الذى يضج بالتسبيح والدعاء..

وفى هذا المقام وحده، يذل عصى الدمع. فلا تملك إلا النشيج والبكاء..

ألست فى حرم الله، وقد تجردت عن كل مظاهر الدنيا، إلا من آثامك وخطاياك؟

ألست فى مقامك هذا واقفًا بين يدى الله وحيدًا فريدًا، قد تخليت عن الأهل والولد والجاه، وقدمت إليه منقطع الصلة بالحياة والأحياء، فى لباسك هذا الذى تغادر به الدنيا وأنت تستقبل الموت وتستدبر الحياة؟

وفى هذا المقام وحده، لا تخجل من أن تعترف بذنوبك وآثامك. بل إنك لتجد الراحة والسلام وأنت تذيب هذه الذنوب والآثام فى دموع التوبة والندم!

ألست واقفًا بباب الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والذى وسعت رحمته كل شىء، فأنت تلوذ بحماه، وتستجديه الرحمة والغفران؟

وفى هذا المقام وحده، يجأر الإنسان بالدعاء لا يكاد يحس من حوله ولا يحس به من حوله. أليس قد تلاشى من إحساسه كل شىء فى الوجود، إلا أنه عبد آبق تقطعت به الأسباب وتخلت عنه الأرباب، فأقبل على مولاه تائبًا منيبًا بين يديه؛ لأنه لا مهرب منه إلا إليه؟!

شعيرة الطواف

وبدأت الطواف تجاه الحجر الأسود مشيرًا إليه وأنا أقول:

– بسم الله ، والله أكبر، اللهم إيمانًا بـك، وتصديقًا بكتـابك، ووفـاء بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك ﷺ.

وكنت أسرع فى الأشواط الثلاثة الأولى، ثم أسير كالعادة فيما بقى مـن الأشواط. فإذا حاذيت الركن اليمانى فى الطواف قلت: (رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار) حتـى أتممتـهن سبعة أشواط.

وكان دعائى فى الطواف ما يحضرنى من مأثور الآيات والأحاديث وما تفيض به مشاعرى فى هذا المقام من ضراعة وابتهال.

وما كان أشد عجبى فيما بعد، وأنـا واقـف أتـأمل الكعبـة، أن أشـهد بعض صبية المطوفين وهم يقودون جماعات الحجيج يلقنونهم من الأدعيـة ما لا يفقه أولئك الصبية معناه، ولا يحسنون مبناه، فيردد أولئك الحجيج ما يسمعون ترديدًا ينبعث من الآذان لا من القلوب!

وهل فى مثل هذا المقام يحتاج المهاجر إلى الله، المقبـل عليـه، إلى مـن يقوده من أمثال هؤلاء الصبية وغيرهم، كما يقود الصبى الراحلة؟

وهل فى مثل هذا المقام الملهم بفيوض المشاعر، الجياش بـأروع المعـانى وأبلـغ الأحاسيس، يحتاج المـرء إلى من يترجم له مشاعره، ويملـى عليـه ما يقول؟

مهنة الطوافة

وقد نشأت مهنة (الطوافة) بمكة على عهد المماليك الجراكسة. إذ كانوا يجهلون اللغة العربية فهم فى حاجة إلى من يلقنهم المأثورات ويرشدهم إلى أداء المناسك.

وكان أول مطوف بمكة هو القاضى إبراهيم بن ظهيرة. وهو الذى قام بتطويف السلطان قايتباى حين أدى فريضة الحج عام ٨٨٤هـ. ويدل ذلك على أن مهنة الطوافة بدأت فى طبقة القضاة. ثم تطورت فى العهد العثمانى فاشترك فيها بعض الأعيان. ثم صار لكل مطوف صبية يتولون تطويف من يتعهد أمرهم من الحجاج.

ووضع أمراء مكة أنظمة للطوافة، وجعلوا لكل بلد أو مجموعة من البلاد الإسلامية مطوفًا خاصًا، ليكون هذا التخصص أدعى إلى توفير راحة الحجاج وتيسير أدائهم للشعائر، بما يعرف المطوف من لغة هذا البلد وتقاليد أهله.

ونظام الطوافة، الآن يشمل القيام بجميع شئون الحجاج: من توفير أماكن الإقامة، وتدبير وسائل الانتقال، وكفالة الحجاج لدى الدوائر الحكومية. وتلك واجبات من الضرورى أن يقوم بها المطوفون. وأن يقوموا إلى جانب ذلك بإرشاد الحجاج إلى المشاعر. وتعريفهم بالمواقف والآثار التى تتصل بفريضة الحج وبتاريخ النبوة والإسلام. أما المهمة الأخرى.. وهى مهمة تلقين الحجاج مأثورات الشعائر والأدعية.

يرددونها وراءهم بلا وعى ولا اختيار؛ لأنها لا تنبعث من قلوبهم وأفكارهم وإنما تلتقطها الآذان فتجرى على الألسنة - فتلك مهمة إن كان لها ما يبررها فى عهد المماليك الجراكسة، فما أظن - وما ينبغى - أن تكون لها مبرراتها الآن..

المقام وزمزم

وكنت فى طوافى بالكعبة أسرع الخطى فى الأشواط الثلاثة الأولى، وقد (اضطبعتُ) فأزحت عن كاهلى اليمنى لباس الإحرام فجعلته تحت عضدى. لقد فعل الرسول - ﷺ - ذلك فى عمرته الأولى وأمر به أصحابه؛ لأن المشركين حين رأوا المسلمين فى الحديبية وقد أوهنتهم حمى يثرب، قالوا شامتين:

قد أوهنتهم الحمى، وإن محمدًا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال!

فأمر الرسول أصحابه أن (يرملوا) فى الأشواط الثلاثة الأولى، وأن يضطبعوا؛ إظهارًا للنشاط والقوة، وقال:

- رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة..

فصارت سنة فى الطواف.

وبعد أن أتممت الشوط السابع، اتجهت إلى مقام إبراهيم فصليت عنده ركعتين. ومقام إبراهيم هذا هو الحجر الذى كان يقوم عليه الخليل وهو يرفع القواعد من البيت..

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآيات: ١٢٧-١٢٩)

وقد بلغ مقام إبراهيم من القداسة أن أقيمت عليه قبة وأصبح مزارًا يظن بعض الحجاج أنه قبر الخليل. كما تبارى بعض السلاطين والولاة فى تحليته بالذهب والفضة.

وما أظن الآيةِ التى تقول:

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ (البقرة: الآية: ١٢٥)

والآية التى تقول:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ ﴾ (آل عمران: الآية: ٩٧)

تعنى هذا الحجر أو تخلع عليه شيئًا من القداسة، وإنما تعنى المكان الذى قام فيه إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل..

ثم اتجهت إلى زمزم فشربت من مائها المبارك، وأنا أردد قول ابن عباس:

- اللهم إنى أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء.

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

- ماء زمزم لما شرب له. إن شربته تستشفى شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله. وهى هزَمة[1] جبرائيل، وسُقيا الله لإسماعيل.

وعن ابن مليكة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: من أين جئت؟

قال: شربت من ماء زمزم.

قال ابن عباس: أشربت منها كما ينبغى؟

قال: وكيف ذلك يا ابن عباس؟

قال: إذا شربت منها فاستقبل القبلة، واذكر الله، وتنفس ثلاثًا، وتضلع[2] منها. فإذا فرغت فاحمد الله؛ فإن رسول الله - ﷺ قال:

آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

وكانت زمزم قبل أن يقام عليها البناء القائم الآن، تشهد ألوانًا من جهالات بعض الحجاج، وتهافتهم على التبرك بمائها، حتى إن أحدهم- كما يقول صاحب الرحلة الحجازية- ألقى بنفسه فى البئر ليموت شهيدًا فى مائها المقدس!

---

(١) هزمة: حفرة.

(٢) التضلع: الامتلاء حتى يبلغ الماء الأضلاع.

وقد رأيت بعض الحجاج يأتون بقطع من القماش فيغمسونها فى ماء زمزم. ثم ينشرونها على حصباء الحرم حتى تجف. وسألت: ما ذاك؟

قيل: هذه أكفانهم يدخرونها ليوم الوفاة!

.. وتركت زمزم إلى الملتزم. وهو ما بين الركن وباب الكعبة. فألصقت صدرى ووجهى بالجدار رافعًا يدى أتعلق بأستار الكعبة، وأنا أجأر بالدعاء وأنشج بالبكاء: إنه موقف للضراعة تشبث فيه بالبيت العتيق بجسمك وروحك ومشاعرك جميعًا. وأنت تسأل الله من فضله وعفوه. وتلوذ بحماه فى ذلة وتجرد وابتهال!

قال ابن عباس: ما بين الركن والباب يدعى الملتزم. لا يلزم ما بينهما أحد يسأل الله شيئًا إلا أعطاه الله إياه..

بين الصفا والمروة

ثم غادرت المسجد الحرام لأؤدى شعيرة السعى بين الصفا والمروة:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة البقرة: الآية: ١٥٨)

وأتممت السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط. وأنا أهتف بالتهليل والتكبير والدعاء. وأتمثل اللهفة الطاغية التى استبدت بقلب (هاجر)

زوج إبراهيم منذ آلاف السنين، وهى تهرول بين الصفا والمروة تلتمس قطرة من الماء تبل بها صدى وليدها إسماعيل.

لقد تركها إبراهيم فى هذا المكان القفر إلى جانب أطلال الكعبة ولم يترك لها ولطفلها الرضيع إلا جرابًا من التمر وقربة من الماء، وإلا دعوات توجه بها إلى الله:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم: الآية: ٣٧)

ولم يلبث أن نفد التمر والماء، وانقطع معهما، غذاء الطفل من ثدى أمه أو كاد. وأخذ الجوع والظمأ يلهب أحشاء الطفل الرضيع..

وجن جنون المرأة وهى تستمع إلى أنين الطفل وبكائه المتقطع الموصول. وتلفتت فيما حولها مكروبة ذاهلة، تتلمس الماء.. فلا ترى إلا الجبال السود والأودية القاحلة.؟ وانطلقت إلى الصفا تتطلع إلى الأرض والسماء، ثم نزلت مهرولة إلى المروة تقلب طرفها الواهن وتستجمع أنفاسها اللاهثة. وما زالت كذلك تتجاذبها اللهفة والقلق والإشفاق سبعة أشواط. حتى إذا كانت على المروة وقد استبد بها اليأس وناءت بها الآلام، توجهت ببصرها نحو الكعبة فإذا عين ماء تتدفق تحت قدمى طفلها المشرف على الهلاك!

صلاة الفجر فى الحرم

وبأداء السعى بين الصفا والمروة تمت شعائر العمرة..

وتحللت من الإحرام..

ولم أستطع النوم تلك الليلة، وأى عين تستطيع أن تغمض أمام هذه المشاهد الرائعة، وأى قلب يستطيع أن ينام؟

لقد قطعت آلاف الأميال منذ غادرت دارى بحلوان صباح ذلك اليوم. إلى أن بلغت مكة قبل العشاء. رحلة طويلة مجهدة لم يتخللها إلا فترات قصيرة للراحة والاستجمام، لا أكاد أصيب منهما طرفًا حتى أخف إلى مرحلة بعد مرحلة. وطواف وسعى ينالان من المرء كثيرًا من الجهد والإرهاق. ومع كل هذا الجهد المتصل والعناء الشديد. أجدنى موفور القوة والنشاط، متفتح المشاعر، مرهف الأحاسيس. لا أجد فى الليل آية السكينة والنوم والأحلام، بل يقظة واعية، وأفراحًا تغمر النفس، وأشواقًا تنسخ آية الليل والنهار..

ومرت الساعات خفيفة مسرعة، إن صح أن الزمن هناك يقاس بالدقائق والساعات. وتردد فى سماء مكة أذان الفجر ينطلق من مآذن الحرم فى بساطة وخشوع وإيمان:

– الله أكبر، الله أكبر..

وهنالك شهدت أروع صورة تبهر العين والقلب والوجدان..

هذا الحرم المقدس تتلألأ جنباته بالأنوار، وهذه الكعبة بأستارها السوداء قد اصطف الناس حولها من كل اتجاه، وقد جلسوا فى خشوع يتلون آيات الله ويرددون التسبيح والدعاء. حتى إذا قامت الصلاة خف إليها الناس حلقة وراء حلقة حتى تمتلىء بهم جنبات الحرم. وما تزال هذه الحلقات تتسع وتنداح مع الفجر فى مسراه، حتى تشمل فى اتجاهها نحو الكعبة جميع أقطار الأرض، فإذا أربعمائة مليون من المسلمين قد اتجهت أبصارها وقلوبهم نحو الكعبة، ورفعوا أيديهم إلى آذانهم هاتفين:

- الله أكبر!

هذه الصورة الرمزية الرائعة للوحدة الإسلامية، لا يمكن للمسلم أن يتصورها على حقيقتها المجسمة الملهمة، ويعيش فيها بحسه ووجدانه، إلا وهو يؤدى الصلاة الجامعة فى المسجد الحرام..

أما ونحن نستقبل الكعبة فى الصلاة فى كل قطر من أقطار الأرض، فلا أحسب أن فى المسلمين من يستطيع أن يتمثل على البعد تلك الصورة الوجدانية الواعية، اللهم إلا من صفت قلوبهم، وشفت بصائرهم، وانزاحت عن حياتهم حجب الزمان والمكان، وليس بالكثيرين أمثال هؤلاء..

يوم التروية

.. وعدت إلى الفندق قبل الزوال أتأهب للإحرام بالحج، والانطلاق إلى منى لقضاء يوم (التروية) فى طريقى إلى عرفات..

ولكن صديقى قال:

– هوّن عليك يا أخى، إنك تستطيع أن تبيت ليلتك هنا فى مكة، ثم تقصد فى الغد إلى عرفات، دون حاجة إلى أن تبيت بمنى.

قلت: ولكنها سنة الرسول ﷺ.

قال نعم، وإن وراء هذه السنة حكمة يجدر تدبرها. إن الحكمة فى مبيت الحجاج بمنى يوم التروية هى التخفيف عنهم من مشاق الرحلة إلى عرفات، وهى رحلة يقطع فيها الحجاج نحو ٢٢ كيلومترًا، ولم تكن وسائلهم فيما مضى ميسرة كما هى الآن؛ فهم كانوا بذلك يهونون على أنفسهم مشاق الرحلة بتجزئتها إلى مرحلتين.

أما الآن فمن اليسير على الحجاج أن يقصدوا إلى عرفات فى سياراتهم فيبلغوها فى نحو ساعة واحدة. وإن التزام جميع الحجاج – وهم مئات الألوف – المبيت فى منى هذا اليوم، فيه إرهاق لهم أى إرهاق، لما يتطلبه ذلك من تكاليف المبيت فى هذا المكان. وما يترتب على حركة مئات الألوف من ضغط وعسر واضطراب، وبذلك تنعكس حكمة المبيت بمنى – كما شرعه الرسول – من تخفيف عن الناس وتهوين لمشاق الرحلة، إلى غير قليل من التعقيد والإعنات.

قلت: ولكنى أميل إلى أن ألتزم فى حجتى الأولى كل ما فعله الرسول – ﷺ – فإذا وفقنى الله لأداء الحج مرة أخرى أو مرات، أخذت بهذه (الرخصة) التى لا يخامرنى شك فى أنها مستوحاة من حكمة هذه السنة النبوية.

الإحرام بالحج

وتجردت من زينتى وأحرمت بالحج، وقد نضوت عن نفسى بعض ما عاودها من خواطر الحياة والأحياء، وتوجهت إلى الله أقول:

اللهم إنى أريد الحج فيسره لى، وتقبله منى. لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!

وحملتنا السيارة إلى منى، فأدركنا بها صلاة الظهر. وقضينا بها ليلتنا حتى مطلع الفجر. إنها مرحلة روحية تهيىء الحاج لموقفه العظيم فى عرفات.

قال - ﷺ - : الحج عرفة.

ويبدأ الوقوف بعرفة من بعد طلوع شمس اليوم التاسع لذى الحجة.

وهناك فى عرفة، ذلك السهل المنبسط الفسيح، تقوم خيام الحجاج على مد البصر. وفى أقصاه جبل (إلال) أو جبل الرحمة، وقد بدا كأنه جبل من البشر لا من الصخور..

وتمثلت فى موقفى ذاك محمدا - ﷺ - يصل إلى عرفات على ناقته «القصواء» وقد سار فى ركابه مائة ألف أو يزيدون..

ثم تمثلته وهو يلقى على الناس خطبة الوداع. يقول العبارة فيرددها عنه ربيعة بن خلف، يبلغها أسماع الناس. وفى هذه الخطبة أبان الرسول عن كثير من شئون الدنيا والدين فأوجز وأبلغ. فلما أتم كلامه واستوثق من أن الناس قد وعوه قال:

- اللهم هل بلغت؟

فأجاب الناس من كل صوب: نعم.

قال: اللهم فاشهد!

وفى هذا اليوم المشهود نزل عليه قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١).

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى، لأنه علم أن النبى قد نعيت إليه نفسه!

الوقوف بعرفة

واجتمع فى عرفات أربعمائة ألف أو يزيدون..

كلهم يلبون ويسبحون ويتجهون إلى الله فى هذا الموقف العظيم بالدعاء والضراعة والاستغفار.

قال على رضى الله عنه، إن أكثر دعاء النبى - ﷺ - يوم عرفة فى الموقف:

- اللهم لك الحمد: كالذى نقول، وخيرًا مما نقول.

اللهم لك صلاتى، ونُسُكى، ومحياى، ومماتى. وإليك مآبى. ولك رب تراثى.

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.

---

(١) من الآية الثالثة: سورة المائدة.

اللهم إنى أعوذ بك من شرما تهب به الريح.

وعن الحسين بن الحسن المَرْوَزىّ قال: سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة قال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فقلت له: هذا ثناء وليس بدعاء..

قال: أما تعرف حديث مالك بن الحارث؟ هو تفسيره..

فقلت: حدثنيه أنت.

قال: حدثنا منصور عن مالك بن الحارث قال: يقول الله عز وجل: «إذا شغل عبدى ثناؤه علىّ عن مسألتى، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

قال: وهذا تفسير قول النبى ﷺ.

ثم قال سفيان: أما علمت ما قال أمية بن أبى الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان يطلب نائلة؟

فقلت: لا.

فقال: قال أمية:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك، إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

ثم قال: يا حسين، هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة، فكيف بالخالق؟!

المؤتمر الإسلامى

وفى هذا الموقف العظيم يوم الحج الأكبر على عرفات، تتجلى روعة الحج وحكمته. وتبدو المنافع التى وعد الله دانية القطوف..

ولكن كثيرًا من هذه المنافع لا يغتنمها الناس كما أرادها الله: للفرد والجماعة. وقد يكون اغتنامهم هذه المنافع كأفراد أوفر من نصيبهم كجماعة تهيأت لهم من الأسباب المادية والروحية ما لا يتهيأ لهم أو لغيرهم من الأمم، على الصورة الرائعة يوم عرفات..

قال الرئيس جمال عبد الناصر، وهو فى موقفه ذاك وقد طافت خواطره بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام:

– يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج. يجب ألا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة..

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة. ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورًا طريفة لقراء الصحف، وإنما بوصفه مؤتمرًا سياسيا دوريًا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية، ورجال الرأى فيها، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة، وكتابها، وملوك الصناعة فيها، وتجارها، وشبابها؛ ليضعوا فى هذا

البرلمان الإسلامى العالمى خطوطًا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معًا، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام.

وقال السيد أنور السادات غداة إعلان قيام المؤتمر الإسلامى:

– إن فكرة اجتماع المسلمين كل عام فى مكة، فكرة قديمة قدم الإسلام نفسه؛ فهى أحد تعاليمه الأساسية التى نفذها المسلمون فى البداية على وجهها الصحيح، فكانت وسيلة رائعة لتعارفهم، وبحث مشاكلهم، وتوحيد أهدافهم. بالإضافة إلى كونها منسكًا دينيًا يهدف إلى تنمية القيم الروحية فى نفوسهم، عن طريق تجريدهم لفترة معينة من مادية الحياة..

ولكن الأمر لم يستمر طويلا على هذه الصورة. فلم تلبث عوامل التأخر والجهل التى بسطها الاستعمار على معظم شعوب العالم ومن بينها الشعوب الإسلامية، أن شوهت حقيقة هذه الفكرة وحولتها عن أهدافها، وجعلتها مجرد منسك دينى قد لا يعلم الكثيرون من المسلمين الغرض منه..

ونحن الآن نحاول أن نعبر هذه القنطرة الطويلة التى تفصل ماضينا عن حاضرنا، والتى تراكمت تحتها فى هوة عميقة أخطاء قرون طويلة..

ونحن لا نسعى من وراء ذلك إلى أكثر من إعادة تنظيم حياتنا طبقًا لتعاليم الإسلام الصحيحة، وتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين، وتحويلها إلى قوة فعالة تستطيع بحكم طبيعتها أن تسهم فى تحقيق سلام العالم وتقدمه وسعادته..

المشعر الحرم

ثم أفاض الحجيج من عرفات..

مئات الألوف تنساب بهم الأباطح والأودية فى طريقهم إلى مزدلفة، وكأنهم جيش لجب تنطلق فيالقه الراكبة والراجلة هادرة فى أحشاء الظلام!

ونزلنا مزدلفة حيث المشعر الحرام. وقد غمرنا شعور طاغ بالغبطة والطمأنينة والسلام. ألسنا نستقبل منذ الليلة عيدًا تولد فيه أرواحنا من جديد؟

لقد انطوت فى عرفات صفحات الماضى القريب والبعيد، وأمحت منها تلك السطور القاتمة والظلال السوداء..

إن الله كتب على نفسه - وهو يباهى ملائكته بأولئك المهاجرين إليه، اللائذين بحماه، الواقفين بين يديه فى تجرد وتوبة وضراعة - ألا يردهم بعد موقفهم هذا إلا وقد أمحت ذنوبهم وخطاياهم، وأشرقت صحائفهم بيضاء من غير سوء..

يا للفرحة الطاغية، ويا للإشفاق الرهيب!

الفرحة بما أصبنا من فضل ورحمة. والإشفاق مما يفرضه علينا هذا الفضل وتلك الرحمة، من تكاليف وأعباء..

أى مستوى هذا الذى رفعتنا إليه رحمة الله، فإذا نحن أطهار كالملائكة؟

وأى جهد وعزم وصبر وإيمان، نستطيع أن نمسك به مقامنا هذا بين الملائكة فى السماء، ونغالب به نوازع البشرية فلا تهوى بنا ثانية فى مهاوى الفتنة ومزالق الشرور!

وانطلق صوت المؤذن يشق ظلام الليل ويطارد فلوله الهاربة:

- الله أكبر.. الله أكبر..

وانطلقنا نؤدى صلاة الفجر، وندعو الله عند المشعر الحرام، وقد تجمعت قلوبنا ومشاعرنا عند معنى واحد، هو أن يجعلنا الله أهلا لستقر هذه الرحمة، وأن يمدنا من روحه القوى بما يمسك مقامنا هذا الذى بلغناه بين الملائكة فى السماء!

رمى الجمار

ثم أشرقت شمس يوم العيد الأكبر، ونحن فى طريقنا إلى منى، ذلك المشعر الذى شهد أروع قصة للتضحية والفداء..

قصة إبراهيم الخليل وهو يقدم بابنه إسماعيل إلى حيث يوفى نذره ويحقق رؤياه، فيقدم فلذة كبده قربانًا إلى الله!

وقصة إسماعيل وهو يسلم رقبته للذبح، ويقول لأبيه فى طاعة وإيمان:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

(الصافات: الآية: ١٠٢)

وفى هذا المكان رمينا جمرة العقبة، كما كان يفعل الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما يطاردان الشيطان وهو يتعقبهما يريد أن يفتنهما فيما هما مقبلان عليه من محنة وامتحان..

بل لعلهما كانا يطاردان تلك العواطف البشـرية، التـى خلفاهـا عنـد أول الطريق: عواطف الأبوة الرحيمة الحانية فى نفس إبراهيم. وعواطـف التشبث بالحياة فى نفس إسماعيل.

وكذلك كنت أحس وأنا أرمى الحصـوات السبع، فـأصيب بـها ذلـك النصب القائم فى ذلك المكان..

كنت أفعل أولا، تحقيقًا لامتثال العبودية، والتأسى بالرسول ﷺ..

ثم لم أكن أتصور أنى أرجم إبليس اللعين، وقد مسـخه الله علـى هـذه الهيئة كما يتصور البعض. أو الذى يرمـز إليـه هـذا النصـب كمـا يتصـور البعض الآخر. وإنما كنت أحس وأنا أرمى هـذه الحصـوات السـبع أننـى أرجـم الشـيطان المنـدس فـى أعمـاق نفسـى. تلـك الشـهوات والنزغـات المستقرة فى حنايا الصدر ولفائف القلـب أو التـى طـهرنى الله منـها بعـد موقفى ذاك فـى عرفـات، ولكنـها مـازالت تتعقبنـى وتراودنـى فـى فتنـة وإغراء. كما كانت العواطف البشرية تتعقب إبراهيـم وإسمـاعيل فـى هـذا المقام.

ولكن أيـن هـذا المعنـى الـذى تمثلتـه، والـذى اسـتلهمته مـن حكمـة الرجم: مما كان يجـول بخواطـر الكثـيرين ممـن يـؤدون هـذه الشـعيرة إذ يرجمون؟

إنك تستطيع أن تتصور الجواب عن هـذا السـؤال، إذا علمـت أن مـن بين ما يتجمع فى المكان المسـوّر الـذى يحيـط بتلـك النصـب، كثـيرًا مـن النعال!

قال اللواء إبراهيم رفعت فى كتابه مرآة الحرمين:

ومن فكاهات الحجاج عند رمى الجمرات، أن بعضهم كان يرمى الحصيات السبع دفعة واحدة، ويخاطب إبليس بلفظة يلعن دينك!

وبعض الحجاج لا يكتفى بالحصيات الصغيرة، بل يأتى بأحجار كبيرة ويرمى بها العمود القائم، بل لا يرتاح إلا إذا هدم جزءًا من البناء.

قد كان من الضباط الذين معنا، «اليوزباشى عبد الوهاب حبيب أفندى»، فلما جاء وقت رمى جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس دفعة واحدة، بهيئة هجوم على عدو!

أيام التشريق

وانصرفنا إلى مكة فأتممنا شعائر الحج: طواف الإفاضة، والسعى بين الصفا والمروة. ثم قصدنا إلى الفندق فتحللنا من الإحرام، أى احتلقنا وتطيبنا ولبسنا المخيط، وأخذنا زينتنا من جديد، احتفالا بالعيد الأكبر فى هذا اليوم المبارك السعيد.

وحملتنا السيارة ثانية إلى منى نقضى بها أيام التشريق، أيامًا ثلاثة ينتقل فيها الحجاج إلى جو جديد، هو مرحلة وسطى بين جو العبادة المتجردة الخالصة فى أيام الحج، وجو الحياة المضطربة الصاخبة التى تنتظرهم بعد أيام أو أسابيع.

حكمة بالغة وتربية روحية سامية، تروض النفس على ممارسة ما كسبته من مشاعر جديدة، وتهيئها لتمثل ما انسكب فيها من معانى الحج وآدابه، حتى إذا عادت إلى غمار الحياة من جديد كان لها رصيد

مذخور من هذه المعانى المستقرة فى الأعماق، تواجه بـه الحيـاة والأحيـاء على أسلوب مثالى رفيع.

وسقنا الهدى إلى محله متقربين به إلى الله..

عشرات الألوف من الإبـل والبقـر والأغنـام، سـالت دماؤهـا فـى أيـام التشريق، ووزعت لحومـها علـى الفقـراء والمسـاكين، حتـى لم يبـق أحـد إلا أصاب منها ما يريد، ومازالت منها المئات ملقاة على جوانب الطريـق تنتظر وحوش البرية وعقبان السماء!

ترى أليس مـن الممكـن أن يجـد المسـلمون وسـيلة أخـرى لإنفـاق هـذه الصدقة، تجعلها أكـثر نفعًـا للفقـراء والمسـاكين، وأخلـق بوقايـة الصحـة العامة لمئات الألوف من الحجيج؟

بلى، وإنهـــا لوسيلة يسيرة المأخـــذ، قليلة التكـــاليف - إلى جـانب ما تحققه من النفع، بل وما تدره من ربـح يمكـن أن يوجـه إلى كثـير مـن مصارف البر. وذلك بأن يحصـر النحـر فـى المكـان المخصـص لذلـك دون غيره، ثم توزيع لحوم الهدى على الفقراء والمسـاكين، وتعبئـة مـا يفيـض منها فـى معلبـات تحمـل إلى الملاجـىء وإلى أهـل الباديـة، وإلى دور قـوم يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفـف. والانتفـاع بعـد ذلـك بدمـاء الهـدى وجلوده وأوباره وأظلافه فيما تصلح له من الصناعات التى تدر الملايين..

وكان علينا أن نرمى الجمرات كل يوم فى ثلاثة مواضع:

- الجمرة الأولى التى تلى منى، والجمرة الوسطى، وجمرة العقبة.

﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

فى مسجد الخيف

وعرجت فى عودتى من الرجم، على مسجد «الخيف» أتأهب لصلاة المغرب. وهو مسجد أقيم تحت سفح الجبل، تتوسطه قبة قيل إنها تظل المكان الذى أدى فيه الرسول الصلاة.

وكان فناء المسجد الكبير المحصب غاصًا بالمصلين والعاكفين، الذين آثروا الجلوس فيه التماسًا للهواء، وفرارًا من الحر الشديد داخل البناء المعروش. ورأيت فرجة على فراش أحدهم تتسع لأكثر من ثلاثة، فهممت أن أجلس، ولكن الرجل ذادنى عنها بغلظة وهو يقول:

- دونك المسجد فيه متسع للصلاة..

قلت متلطفًا: ولكن ألا يسرك أن تشاركنى الأجر وأنا أصلى على فراشك هذا، فأتقى حرارة الحصباء أو حرارة البناء المعروش؟

قال: إن هذا الفراغ ينتظر أصحابه..

قلت: أفى بيت الله تحجز الأمكنة، وقد شرع الدين الأفضلية فيها للسابقين؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٣.

قال – وقد ضاق الرجل بى وبحديثى:

– وماذا كنت تفعل لو لم تجد هذا الفراش خاليًا؟

قلت: أصلى على الحصباء الملتهبة، أو يحتوينى البناء بحره الشديد.

قال: فلتفعل..

فانصرفت مغيظًا محنقًا بعد أن استنفدت صبرى وحيلتى فى إقناعه دون جدوى، تتجاذبنى تلك النوازع البشرية التى كنت أرجمها منذ قليل!

ولكنى تغلبت على نوازعى وكظمت غيظى، وأديت الصلاة داخل المسجد وأنا أتصبب عرقًا، واستغفرت لنفسى ولصاحبى مما وقع فيه.

هذه القصة – وأمثالها فى الحج ليس بالقليل – تصور إلى أى مدى يأخذ بعض الحجاج بآدب الدين، وينتفعون بروح الحج وحكمته.

هذا الدين الذى يأمر بالعرف، ويحض على الإيثار، ويبث روح التعاون.

وذلك الحج الذى يمحو أنانية الفرد، ويستل شهوات النفوس، ويجمع القلوب على الحب والألفة، رغم اختلاف الأجناس والألوان والبيئات واللغات..

إن هؤلاء النفر من الحجاج، يقدمون إلى الحج وهم لا يدركون من حكمته وغايته إلا أنه وقوف وطواف وسعي ودعاء. مناسك جامدة عمياء لا تنفذ إلى قلوبهم أسرارها، ولا تنطبع نفوسهم بآثارها، ولا تتطهر مشاعرهم مما رسب فيها من عيوب وأقذار..

وإذا كان من الصائمين نفر ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش، فإن هؤلاء النفر من الحجاج ليس لهم من حجهم إلا عناء السفر وآلام الغربة، ومتاعب الحياة المتجردة الشاقة، وإلا ما يقارفونه في حجهم هذا من ذنوب وأوزار..

ولقد قيل بحق إن علامة الحج المبرور هي أن يعود الحاج إلى بلده خلقًا جديدًا، قد تبدلت حياته ونظرته إلى الحياة، واتسقت علاقته بربه وبالناس على مثل كريمة طيبة. ولا عجب بعد ذلك ألاَّ يكون لمثل هذا الحج المبرور جزاء إلا الجنة!

فكيف بهؤلاء النفر من الحجاج إذا عادوا إلى بلادهم، واحتوتهم الحياة الصاخبة الضارية، وهذه حالهم في منازل الوحي، ومواطن النبوة، ومشاعر التجرد والإقبال على الله؟!

إمارة الحج

وعدنا من منى إلى مكة قبل الغروب، وأنا أتمثل فى هذا الموكب السيال الذى يتدفق بأفواج الحجيج قول الشاعر القديم:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشُدَّت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

وقضينا ليلتنا فى الفندق نسمر مع طائفة من نزلائه. وكان من بينهم أمير الحج..

وتطرق الحديث إلى تاريخ إمارة الحج فى الإسلام. قال صديقى:

- كان أبو بكر - رضى الله عنه - أول أمير للحج فى الإسلام. ولاه الرسول - ﷺ - إمارة الحج فى العام التاسع للهجرة. وكان البيت الحرام لا يزال يستقبل المشركين الذين يحجون إليه كل عام، ويؤدون مناسكهم على طريقتهم الجاهلية. فقد كان بينهم وبين الرسول عهد ألاَّ يرد أحد عن البيت الحرام.

وكان أبو بكر والمسلمون بمنى حين قدم عليهم من المدينة على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - فلما رآه أبو بكر قال له:

أمير أم مأمور؟

قال: بل مأمور..

إنه جاء يحمل إلى المسلمين رسالة السماء فى يـوم الحـج الأكـبر. فقـد نزلت على الرسول - ﷺ - سورة (براءة) فأمر علىً بـن أبـى طـالب أن يلحق بالمسلمين فى عرفات ليبلغهم إياها.

فلما اجتمع الناس فى منى، وقف على وإلى جانبه أبو هريـرة. فنـادى علىً فى الناس يتلو قوله تعالى..

ثم صاح على بالناس..

أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحـج بعـد العـام مشـرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان لـه عنـد رسـول الله - ﷺ - عـهد فهو إلى مدته.

وكانت فترة الانتقال التى حددتها الآية أربعة أشـهر. ومـن بعدئـذ لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان، ولم يبـق بـين المسـلمين والمشـركين عهد.

***

وكان رسول الله - ﷺ - أمير الحاج فى العام التالى..

وحج أبو بكر بالناس فى خلافته. ومـن بعـده عمـر وعثمـان ومعاويـة وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وغيرهم من الخلفاء والسـلاطين والولاة.

وقال محمد بن عبد القادر الأنصـارى فى كتابـه «درر الفرائـد المنظمـة فى أخبار الحج ومكة المكرمة»: إن أمير الحج فى عهده - أواخـر القـرن العاشر الهجرى - كان يعينه السلطان ليلة المولد النبوى. فـإذ مـا اجتمـع

الأمراء لدى السلطان فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ليسمعوا القرآن وقصة المولد. وحان وقت إدارة الشراب الحلال. بدأ الساقى بالسلطان فشرب من كوبه يسيرًا ثم يأمر بالباقى إلى من يريده أميرًا للحج، فإذا ما أعطى الكوب عرف أنه الأمير فقام للسلطان شاكرًا. وعرف الحاضرون فقاموا للأمير مهنئين. ومن ذلك الوقت يعد عدته للسفر دون أن يكون له قانون معين يسير عليه، ويعينه على أداء عمله أصحابه ومحبوه فيقدمون له المال والغلال والهدايا.

وكان للأمير فى نفوس الناس مكانة سامية وجاه عظيم، حتى كانوا يتقربون إليه بمراعاة خدمه وغلمانه. وكان إذا احتمى بملاذه قاتل النفس المحرمة أو أحد الجناة لا يتعرض له بسوء. ثم تغيرت الحال وأصبح الناس يعاملون الأمير كما يعاملون أحد الرعايا، وهذا هو الحق بعينه؛ فإن الإمرة ما كانت لتمنع فى الشرع أولياء القتيل من أن يأخذوا حقهم. وما كانت سدًا دون إقامة الحدود والقيام بالجزاء العدل».

قصة المحمل

وتتصل بإمارة الحج قصة المحمل والكسوة. والأصل فى المحمل أنه الجمل الذى تحمل عليه الهدايا إلى الكعبة. قال السيوطى إن أول من أحدث المحامل فى طريق مكة الحجاج بن يوسف الثقفى.

وقال محمد بن عبد القادر الأنصارى إن المحامل التى اعتادت أن ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة: العراقى، والمصرى، والشامى، واليمنى.

وقد بدأ الاحتفال بسفر المحمل فى عهد الدولة الأيوبية، واتخذ مع مرور الزمن صفة تقرب من القداسة عند بعض العامة. قال البتنونى فى «الرحلة الحجازية»[1]:

.. وكان للمحمل عشرون جملا. وكان لها مناخ فى بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد. وكانت الحكومة فى الزمن السابق تشترى مع هذه الجمال جملا تجعله فداء عنها كل سنة، فيأتى به الجمالة قبل موكب الحج ويركبون عليه شيخ الجمل، ويسيرون به ومعهم العكامة[2]، والضويّة[3]، وأمامهم الفرايحية يحيط بهم كثير من الغوغاء. ويمرون فى القاهرة ثم يذهبون إلى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك. وكان المحاملى يأخذ ربعه، والجمال ربعه، وخدمة الشيخ سعيد ربعه، وخدمة الشيخ يونس الربع الباقى. وكانوا يبيعون لحمه إلى الناس على سبيل البركة، مدعين أن لحمه ينفع للصداع، وشحمه للبواسير!».

وقد حدثت بسبب المحمل عدة وقائع بين أمير الحج المصرى وآل سعود. ففى عام ١٢٢١ هـ أحرق الأمير السعودى المحمل، وفى أوائل عهد الملك عبد العزيز حدثت فتنة كبيرة بسبب المحمل ذهب ضحيتها كثيرون..

---

(١) عام ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م.

(٢) العكامة: الذين يضعون الأحمال على الجمال ويحافظون عليها.

(٣) الضوية: الذين يحملون المشاعل فى موكب الحج فى الليالى المظلمة.

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فقد كانت لها أوقاف لعل أقدمها ما وقفه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر بن قلاوون، فقد اشترى عام ٧٥٠ هـ من بيت المال ثلاث قرى هي: بسوس، وأبو الغيط، وسندبيس- من قرى القليوبية. ووقفها على كسوة الكعبة والحجرة النبوية مرة كل خمس سنين.

واشترى السلطان سليمان خان (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) سبع قرى أخرى بالولاية الشرقية أضافها إلى هذه القرى الثلاث، وهي: سلكة، سروبجنجة، قريش الحجر، منايل وكوم رحان، بجام، منية النصارى، بطاليا. وقدرت حصيلة هذه الأوقاف بنحو ٣٦٥ ألف درهم فضي في السنة.

وفي أوائل القرن الثالث عشر للهجرة حلت هذه الأوقاف، وصارت الكسوة تصنع من الميزانية العامة للدولة.

والكسوة ثمانية أحمال من الحرير الأسود المطرز بالكتابة: تتألف من ٦٢ ثوبًا طول كل منها ٢٦ ذراعًا بلديًا وعرضه ٩٠ سم. ولكل حمل من الأحمال الثمانية حزام يتراوح طوله بين ١٢ ذراعًا وسبعة أثمان الذراع، وبين ٩ أذرع وسبعة أثمان الذراع.

وللكسوة أجزاء أخرى، منها ستارة باب الكعبة ويسمونها البرقع، وهي محلاة بالذهب والفضة. وكسوة مقام إبراهيم. وستارة باب مقصورة إبراهيم. وستارة باب التوبة. وستارة باب المنبر. وكيس مفتاح الكعبة.

وعند وصول الكسوة إلى مكة، تسلم إلى الشيبى سادن الكعبة بمقتضى إشهاد رسمى. وفى صباح يوم النحر والحجاج بمنى تكسى بها الكعبة بدلا من الكسوة القديمة.

وكان عمر - رضى الله عنه - ينزع الكسوة القديمة ويفرقها على الحجاج..

وقال «اللواء إبراهيم رفعت»، وكان أميرًا للحج حتى عام ١٩٠٨: أما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة إلى الشريف. وإذا كان الحج بالجمعة يرسل إلى جلالة السلطان. وغير المقصب يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه للحجاج. وبجوار باب السلام حوانيت تباع فيها الكسوة مخصوصة بذلك.

وترجع كسوة الكعبة إلى عهود بعيدة. وقد قيل إن أول من كساها «تبَّعٌ أبو كرب أسعد» ملك حمير عام ٢٢٠ قبل الهجرة. كساها بالبرود المقصبة، وعمل لها بابًا ومفتاحًا. وفى ذلك يقول:

فكسونا البيت الذى حرم الله .. ملاء مقصّبا وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لنا به إقليدا[1]

ثم طفنا بالبيت سبعًا وسبعًا وسجدنا عند المقام سجودا

ثم ظلت الكعبة تكسى بالجلود والقباطى - وهو قماش مصرى - وكساها الرسول ثيابًا يمانية. وكانت الأستار يوضع بعضها فوق بعض

---

(١) الإقليد: المفتاح.

حتى أثقلت بناء الكعبة، فأمر الخليفة المهدى العباسى بالاقتصار على كسوة واحدة من الحرير الأسود، وكان السواد شعار العباسيين..

ومن الموافقات اللطيفة، أن هذه الستائر كانت تصنع فى مدينة مصرية اسمها «تنيس» بالقرب من دمياط، وفى بعض البلاد المصرية الأخرى، إلى أواخر عهد العباسيين. ثم استأثرت مصر فيما بعد بالأمر كله، فصارت هى التى تتولى كسوة الكعبة على نفقتها ومن صنع أبنائها حتى اليوم.

أما الصرة التى يحملها معه أمير الحج للإنفاق على الحرمين، فأول ما عرف ذلك كان فى عهد المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وكان السلطان سليمان خان يرسل لأهل مكة وحدها ألف دينار أشرفى أحمر كل عام.

تاريخ الكعبة

قال صاحبى: هلى لك فى زيارة جوف الكعبة؟

قلت: حبذا الأمر..

ووقف صاحبى يحدثنى عن تاريخ الكعبة، ريثما يهيىء لنا السادن فرصة الدخول.

هذا البناء القائم الآن على صورته هذه، ليس هو الأثر الذى تركه إبراهيم منذ آلاف السنين؛ فقد تعاورته الأحداث وتداولته الأحقاب بالهدم والبناء. ولعل أصح ما يروى فى ذلك ما كان قبيل البعثة المحمدية، حينما طغى السيل على الكعبة فأوهى بنيانها وصدع جدرانها، فأعادت قريش بناءها من جديد.

على أن قريشا أنقصت من مساحة الكعبة حينما أعادت بناءها. ولذلك قال الرسول - ﷺ - لعائشة فيما بعد.

- لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام، لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشًا استقصرتها حينما بنت الكعبة.

ثم كانت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان، وانتقاض عبد الله بن الزبير على بنى أمية، وهو يؤجج الثورة عليهم فى مكة. فأرسل يزيد بن معاوية جيشًا لإخضاعه، واعتصم ابن الزبير ورجاله بالحرم. وهنا سجل التاريخ صورة إلى جانب صورة:

أما الأولى فهى صورة محمد يوم فتح مكة وأمكنه الله من رقاب قريش، وعلى رأسهم أبو سفيان جد يزيد هذا. إذ بعث الرسول من ينادى فيهم:

(من دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن).

وأما الصورة الأخرى، فهى صورة جيش يزيد هذا الذى جاء يغزو مكة، فلما احتمى عبد الله بن الزبير ورجاله بحمى الله، أخذت المجانيق ترمى هذا الحمى ومن يلوذون به بمئات القذائف، حتى احترقت الكعبة وتصدع بناؤها. على أن رب البيت لم يمهل هذا الطاغية، كما لم يمهل من قبله أصحاب الفيل، فلم تلبث مكة أن جاءها معناه..

وعاد الجيش الأموى إلى الشام، وعادت مكة تتطلع إلى البيت العتيق فى حسرة وإشفاق، وهو فى حالته تلك من التصدع والاحتراق. حتى ليوشك أن تتناثر حجارته من وقع الحمام!

ووجدها ابن الزبير فرصة لإعادة بناء الكعبة على أساس إبراهيم، وبالصورة التى هم الرسول أن تكون عليها لولا أن خشى الفتنة يومذاك لقرب عهد الناس بالجاهلية وحداثة عهدهم بالإسلام.

على أن هذا البناء الجديد الذى أقامه ابن الزبير لم يلبث إلا عشر سنوات، ثم تجدد الصراع بين بنى أمية وعبد الله بن الزبير، وحاصر الحجاج ابن الزبير بمكة وقتله. ثم نقص ما زاده ابن الزبير فى بناء الكعبة. وسد بابها الغربى. وأعادها على الصورة التى كانت عليها فى الجاهلية.

وظل بناء الكعبة هذا مشكلة من المشكلات السياسية والدينية طوال العهد الأموى ومطلع العهد العباسى: هل يبقى البناء على صورته هذه التى ردها الحجاج إلى ما كانت عليه فى الجاهلية، أم يعاد بناء الكعبة على الصورة التى ردها ابن الزبير إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم؟

واستشار هارون الرشيد الإمام مالكًا فى أن يعيدها إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم. ولكن الإمام مالكا نظر إلى الأمر نظرة أبعد مما يتصل بالتحقيق التاريخى لطراز الكعبة؛ إنه نظر إلى حرمة البيت العتيق وقداسته. وأراد أن يوصد ذلك الباب الذى تنفذ منه أهواء السياسة للعبث بحرمة البيت وقداسته. فقال لهارون الرشيد:

– يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها!

وظلت الكعبة على حالها تلك ألف عام..

ثم عدا عليها السيل فصدع بنيانها. وهب العالم الإسلامى لإعادة عمارتها قوية مدعمة، مع المحافظة على كثير من أحجارها السليمة. واقتضى ذلك ترميم الحجر الأسود وتقوية أجزائه فى إطار من الفضة. وكان نصيب مصر فى هذه العمارة هو النصيب الأوفى، إذ قدمت عددًا كبيرًا من المهندسين والصناع، وأمدتهم بكل ما تحتاج إليه العمارة من مواد، وأنفقت فى ذلك نحو ستة عشر ألفًا من الجنيهات.

ذلك هو بناء الكعبة القائم اليوم!

فى جوف الكعبة

وفد إلينا سادن الكعبة من آل الشيبى، وهم بطن من قريش، ظلوا يتوارثون السدانة من عهد الجاهلية إلى يومنا هذا. وكانت مفاتيح الكعبة عندما فتح الرسول مكة مع عثمان بن طلحة، فأخذها منه الرسول وأراد أن يحجزها عنه. فنزل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾

فردّها الرسول إلى عثمان بن طلحة قائلا:

– ها كم خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم.

وصعدنا على مرقاة خشبية متحركة حتى بلغنا باب الكعبة، وهو على ارتفاع غير قليل من الأرض. وقد صنع الباب الحالى فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود. وكان الباب الذى قبله مهدى للكعبة من السلطان مراد خان قبل ذلك التاريخ بنحو ١٢٥ سنة.

وفتح الشيبى الباب..

الله أكبر، الله أكبر !!

لقد كنت منذ لحظات أملأ ناظرى وخاطرى بمشهد الكعبة. فى بنائها الرهيب وأستارها السوداء، وأطوف حولها فى خشوع وتجرد وابتهال، وأطويها فى مشاعرى بكل ما تفيض به روعة الحاضر وذكريات الماضى البعيد. وها أنا ذا الآن أخطو إلى جوف الكعبة فتطوينى هى بين حناياها، وإذا بروحى تمتد وقلبى يكبر حتى يملأ جوف الكعبة خافقًا بالتسبيح والدعاء، وإذا بى أحس كأننى جزء حى فى ذلك البناء الخالد، هو بمثابة القلب الخافق فى كائن ينبض بالحياة!

وصرفنى هذا الشعور لحظات لا أدرى مداها عن أن أتبين معالم الكعبة، أو أصغى إلى ما يتحدث به الدليل..

ثم أفقت من هذا الاستغراق الروحى، وتقدمت إلى الجدار الذى يقابل الباب، ووقفت تجاه علامتين إزاءه أقيم الصلاة: إنه المكان الذى كان يصلى فيه محمد ﷺ.

والكعبة من الداخل أشبه بحجرة مربعة الأضلاع، غير أن زاويتها الشمالية إلى يمين الداخل مشطورة، وبهذه الشطرة باب صغير يؤدى إلى

سلم يصل إلى سطح الكعبة. ويعتمد سقفها على أعمدة ثلاثة من خشب العود، امتنعت على البلى من عهد عبد الله بن الزبير حتى اليوم، إلا ما أصابَ قواعدها من التآكل في العهد الأخير فشدت هذه القواعد بأطواق لدعمها وحمايتها. وتكسو جدران الكعبة أستار من الحرير مطرزة بالآيات القرآنية وغيرها. وقد تنافس الملوك والأثرياء في تقديم الهدايا النفيسة، وتزيين جوف الكعبة بالقناديل الذهبية والستائر الثمينة في مختلف العصور. ولكن هذه النفائس كانت عرضة للنهب والسلب، وأشهر ما يذكره التاريخ من ذلك حين أغار القرامطة على مكة عام ٣١٧هـ، فجردوا الكعبة مما في خزانتها من الجواهر، وانتزعوا ما كان بها من صفائح الذهب، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه وعادوا به إلى (هجر) وهي قرية من أعمال البحرين كان قد بنى بها أبو طاهر القرمطي بيتًا أراد أن يصرف المسلمين عن الكعبة بالحج إليه..

قيل: وقد سار أبو طاهر هذا في زحفه على مكة في عسكر كثيف. وكان المسلمون وقتئذ في موسم الحج، فبغتهم هو ورجاله بالسيوف تحتز أعناقهم وتسفك دماءهم في الشهر الحرام والبلد الحرام، حتى صرع منهم ثلاثين ألفًا أو يزيدون!

على أن القرامطة فشلوا في صرف الناس عن قبلتهم هذه، إلى تلك القبلة التي أقاموها في (هجر) واضطروا فيما بعد إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة، وظل البيت - كما كان من عهد إبراهيم - مثابة للناس وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود.

الحجر الأسود

قال صاحبى: هل قبلت الحجر الأسود؟

قلت: لا. فقد اكتفيت بالإشارة إليه مكبرًا حين أبدأ الطواف وحين أحاذيه..

قال: ولماذا لا تقبله أسوة بالرسول؟

قلت: أولا ترى هذا التزاحم الشديد على تقبيله، وهذا الشرطى القائم بمقرعته، يصد ذلك التيار المتدفق ويحاول تنظيم موجاته المتدافعة فلا يكاد؟

قال: فلتحاول حين تهدأ موجة الطواف.

قلت: نعم، ورحم الله ابن الخطاب إذ يقول: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله - ﷺ - يقبلك ما قبلتك!

قال: ألا تدرى الحكمة من تقبيل الحجر الأسود؟

قلت: إن الحكمة فى كثير من الأمور (التعبدية) قد لا تكون واضحة المعنى، محدودة المعالم. وحسبها أن فيها معنى الخضوع والامتثال لما أمر الله به، أو التأسى بما فعله الرسول الذى لا ينطق عن الهوى..

قال: إنه لكذلك. «وإن للأستاذ محمد رشيد رضا» - رحمه الله - رأيا فى ذلك هو أدنى إلى العقل لمن أراد أن يزن الأمر بميزانه. إنه يرى قيمة الحجر الأسود فى أنه العلامة الظاهرة المميزة بلونها المغاير للبناء، والتى يبدأ منها الطواف حول الكعبة. كما يرى أن هذا الحجر هو الأثر

الوحيد فى بناء الكعبة الذى يمكن القطع بأنه الأثر الباقى من عهد إبراهيم، لم يدركه البلى أو تتبدله يد العمارة على اختلاف الأحداث وتعاقب العصور.

ثم هو على هذا وذاك جدير بالاحترام لأنه من بيت الله، والشاهد الأوحد الذى يهتدى به الحجاج فى أداء شعيرة الطواف.

ومن المعانى الجميلة فى حكمة تقبيل الحجر الأسود قول الشاعر عمر بهاء الدين الأميرى فى ديوانه (مع الله):

الحجر الأســـــود قبلته بشفتى قلبى، وكله وله
لا لاعتقـــادى أنه نافع، بل لهيامى بالذى قبله
محمد أطهر أنفاســه، كانت على صفحته مرسله
قبله، والنـــور من ثغره يشرق آيات هدى منزله
قبلت ما قبل ثغره الناطق بالوحى، ابتغاء الصلة!

إنه معنى جميل، وجديد..

فهو يقول: إنه قبل الحجر الأسود، بشفتى روحه لا فمه وحسب، حيث التقت بالحجر الأسود شفتا الرسول - ﷺ - ابتغاء الصلة بتلك القبلة النبوية الطاهرة..

.. وانتظرت حتى هدأت موجة الطواف فى الهزيع الأخير من الليل، ثم أقحمت نفسى فى صف من الحجاج حتى بلغت الحجر الأسود،

فأدخلت رأسي في طاقته التي برتها قبلات الملايين بعد الملايين على مر السنين والأحقاب، وقبلته وأنا أردد قول ابن الخطاب..

وتدافع من ورائي جماعة من البدو فدفع أحدهم رأس صاحبه بعنف في هذه الطاقة وهو يصيح في نشوة ولهفة: حجّ.. حج!

ونظرت فإذا رجل يسيل وجهه بالدماء، وهو في غمرة البهجة والسرور..

وكذلك فعل أصحابه واحدًا بعد الآخر..

إن الحج عند هؤلاء لا تتم مناسكه، ولا يكون مقبولا عند الله، إلا إذا أريقت هذه الدماء الزكية على الحجر الأسود!

وحمدت الله أن لم يكن موضعي عند تقبيل الحجر الأسود بين جماعة من هؤلاء. وتمنيت لو أن عمر بن الخطاب هو ذلك القائم عند الحجر الأسود، لا يضرب بدرّته هذه الرءوس ولكن يضرب بسيفه الأعناق..

دعاء البدو

قال صاحبي: حسبك، واستغفر الله من سوء ظنك بأمثال هؤلاء..

أما قرأت قول الرحالة ابن جبير في قبائل السراة اليمنية؟

قلت: وماذا قال ابن جبير؟

قال: لقد وصف من أحوال هؤلاء البدو عجبًا فقال:

(القوم عرب صرحاء، فصحاء، جفاة، أشداء. لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السير المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية. فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها. فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها. وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب، وتتفجر لها الأعين الجوامد، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، متلقفين لها من ألسنتهم..

وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها؟ وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع، وينقرون بالسجود نقرا. ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يمينًا وشمالا التفات المروّع، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به، ووصاه بما شاء.. ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة!

وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان الصحيح. وذكر أن النبي - ﷺ - ذكرهم وأوصى بهم خيرًا، وقال: (علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء) وذكر أن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - كان

يحترم وقت طوافهم، ويتحرى الدخول فى جملتهم، تبركًا بأدعيتهم. فشأنهم عجب كله).

النساء فى الحرم

ومن الحقائق النفسية التى يحسها الإنسان فى الطواف وفى مقامه بالمسجد الحرام، الانصراف عن تعلق النظر أو انشغال القلب بمن يطفن من النساء. إنه مقام يستأثر بالمشاعر جميعًا، فلا ينازعها فيه أى مظهر مما يستهوى القلوب والأنظار.

على أن ذلك لم يمنع أحد الشعراء أن يقول:

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد

وحبذا اللائى يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فلما بلغ ذلك خالد بن عبد الله القسرى، والى مكة على عهد عبد الملك ابن مروان - غضب وقال:

- أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا!

وأمر بعدم اختلاط النساء بالرجال فى المطاف. وأجلس عند كل ركن حرسًا بأيديهم السياط يمنعون النساء أن يختلطن بالرجال.

وقال رجل من موالى الأنصار:

ليتنى فى المؤذنين نهارى إنهم يبصرون ما فى السطوح

فيشيرون أو يشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح

وهنا أسرف خالد القسرى، أو أسرف عليه رواة التاريخ؛ فقد ذكروا أنه حين سمع هذه الأبيات أمر بهدم المنائر!

وكانت النساء على عهد الرسول - ﷺ - يصلين فى المسجد مع الرجال. يقف الرجال وخلفهم الصبيان والنساء فى المؤخرة.

وفى منتصف القرن الثالث للهجرة وضع على بن الحسن الهاشمى والى مكة حاجزًا يفصل النساء عن الرجال فى الصلاة.

وقد شهد اللواء إبراهيم رفعت أمير الحج عام ١٣٢٠هـ مكانًا للنساء داخل المسجد الحرام عليه خشب (شيش) ارتفاعه متران. ولكنه لما عاد للحج بعد خمس سنين وجد هذا الحاجز قد رفع.

تاريخ المسجد الحرام

أما المسجد الحرام فيبدأ تاريخه منذ ظهور الإسلام. أما قبل ذلك فقد كانت الكعبة قائمة فى مكانها هذا وليس حولها إلا الفضاء الممتد إلى جميع الجهات. فلم تكن ثمة دور ولا سور؛ لأن القبائل التى سكنت مكة من العمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم، كانوا يقطنون فى شعاب مكة ويتركون ما حول الكعبة، تعظيما لشأن البيت العتيق.

وظل الأمر كذلك حتى انتقلت ولاية مكة إلى قصى بن كلاب -- الجد الخامس للرسول ﷺ ، فجمع بطون قريش وأمرهم أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة وقال لهم:

إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس، ولم تستحلّ قتالكم والهجوم عليكم.

وبدأ قصى فبنى دار الندوة فى الجانب الشمالى. وبنت قريش بيوتها حول الكعبة. وكان كل بيت منها على هيئة دائرة حتى لا تكون شبيهة ببناء الكعبة المربع الأضلاع. وكان ارتفاعها أقل من ارتفاع الكعبة احترامًا لها. وكان لكل بيت باب يتجه إلى الكعبة، وبين كل بيتين ممر يفضى إلى المطاف.

ولم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الصلاة، وإنما كانت عبادتهم الطواف. فلم يكن ثمة مسجد حول الكعبة، وإنما كان مطاف للعبادة، ومجالس عامة يتناول الناس فيها مختلف الشئون.

فلما جاء الإسلام، كان من أسلم من أهل مكة يستخفى بصلاته فى بيته أو فى أحد الشعاب. ولم يصل حول الكعبة إلا الرسول وأبو بكر فى فترات متقطعة. ولم يستعلن المسلمون بصلاتهم ويؤدوها حول الكعبة جهارًا إلا بعد فتح مكة. ومن ثم بدأ تاريخ المسجد الحرام.

وظل مدار المطاف حول الكعبة مسجدًا فى عهد الرسول وعهد أبى بكر. وفى عهد عمر كان المسجد قد ضاق بالمصلين، فعرض على أصحاب الدور المحيطة بالحرم أن يشترى منهم دورهم فيزيلها ليزيد فى مساحة الحرم. فأبى بعضهم عليه ذلك، فأجلاهم عن دورهم ووضع لهم ثمنها فى خزانة الكعبة، ثم قال لهم:

– إنما نزلتم على الكعبة، فهو فناؤها.. ولم تنزل الكعبة عليكم!

ثم أقام عمر حول المسجد سورًا عليه أبواب.

وكذلك فعل عثمان؛ فقد زاد فى ساحة الحرم بعد أن أزال الدور التى حوله بمقدار الزيادة. ووقع له من أصحاب هذه الدور ما وقع لعمر من قبل؛ فقد امتنع بعضهم عن بيع دورهم ورفضوا قبض ثمنها، فأمر عثمان بهدم هذه الدور على أصحابها..

فصاحوا به!

فغضب عثمان وقال لهم:

– جرأكم علىّ حلمى عنكم؛ فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد..

ثم أمر بهم إلى الحبس، فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأخلى عثمان سبيلهم وأخذوا ثمن دورهم.

وزاد عبد الله بن الزبير فى المسجد زيادة كبيرة عام ٦٦هـ، ثم جدد عبد الملك بن مروان عمارة المسجد الحرام عام ٧٥هـ فرفع جدرانه وزين رأس كل أسطوانة بخمسين مثقالا من الذهب. ثم كانت الزيادة والتجديد اللذان تما فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ٩١هـ.

وتمت بعد ذلك زيادات وتجديدات أخرى أهمها زيادة محمد المهدى العباسى عامى ١٦٠ و ١٦١هـ، وقد قدرت تكاليفها بما فى ذلك ثمن الدور التى هدمت وأدخلت فى التوسعة، بنحو أربعة ملايين و٥٠٠ ألف دينار.

وبدأت منذ سنوات أكبر عمارة للمسجد الحرام وللمسعى، رصدت لها خمسون مليونًا من الجنيهات.

فى غار ثور

قلت لصاحبى:

فلندع حديث الحرم وعمارته، ولنمض مع القصة إلى معالمها الأخرى. فما أحب أن تفلت منا هذه الفرصة قبل أن نبلغ مع هذا الجو التاريخى مداه..

وحملتنا السيارة إلى جبل ثور، جنوبى مكة، وأغفت عينى حين استيقظت مشاعرى، فإذا بى ألمح شبحين قد تدثرا بالظلام. يتخلف أحدهما فيسير من وراء مرة، ثم يسرع فيسير من أمام مرة أخرى..

ثم إذا بى أسمع همس الشبح الآخر. وهو يسأل صاحبه عن أمره ذاك فيقول له:

- يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشى خلفك. ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك!

فيشرق وجه الرسول بابتسامة جميلة، ثم يقول:

- يا أبا بكر، لو كان شىء أحببت أن يكون بك دونى؟

فيجيبه أبو بكر فى حرارة دافقة:

- نعم، والذى بعثك بالحق!

وبلغنا قمة الجبل بعد جهد. ثم وقفنا أمام الغار الذى احتضن الدعوة الإسلامية وهى وليد طريد، وحمى الرسول وصاحبه من كيد المشركين حين ائتمروا به ذات ليلة ليقتلوه..

ثم عادت بى مشاعرى إلى أعماق الماضى البعيد..

وانبثقت من جوف الغار المظلم أضواء ذلك الماضى، فإذا أبو بكر يسبق محمدًا فى الدخول إلى الغار، فيستبرئه مما عساه يكون فيه. ثم ها هما يصليان فى جوف الغار شكرًا لله الذى هيأ لهما هذا الحمى الأمين.

وطلعت الشمس فكانت أظلم على قريش من قطع الليل الأسود!

فقد أفلت الأسد الحبيس من إساره..

إن محمدًا قد فر من مكة، وإن هذا الذى كان ينام على فراشه ويتربصون به الموت، ليس إلا علىّ بن أبى طالب!

وانطلقت خيلهم تركض فى كل سبيل، وتعدو فى كل اتجاه. وانطلق قصاصوا الأثر يستنطقون ذرات الرمال ومسارب الجبال، وبلغ بعض فتيانهم جبل ثور، ثم خطر لهم أن يصعدوا فينظروا. لعل محمدًا وصاحبه قد أويا إلى غاره..

ووقف أحدهم على باب الغار يجيل بصره فلا يرى شيئًا.

وهمس أبو بكر فى أذن الرسول يقول:

لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا!

فيجيبه الرسول فى طمأنينة وعزاء:

يا أبا بكر، ما ظنك فى رجلين الله ثالثهما! لا تحزن إن الله معنا.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

فى غار حراء

ثم قفلنا راجعين إلى مكة. وتواعدت مع صاحبى على أن نقصد فى صباح اليوم التالى لزيارة غار حراء..

وقال صاحبى وهو يودعنى:

– أخشى أن تكون قد أصابتك عدوى بعض الحجاج، الذين يعتبرون زيارة هذه المشاهد وأمثالها من مناسك الحج، ويسرفون فيما يذهبون من ذلك أيما إسراف.

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٠.

قلت: معاذ الله أن أكون من الجاهلين. فلم تكن هذه المشاهد مزارًا في عهد الرسول وأصحابه. وأني لأنكر أشد الإنكار العقائد الفاسدة التي طغت على بعض المسلمين في عصور الجهل والانحلال. والتي رسبت في أعماقهم من آثار الوثنيات الأولى، وآثار السموم الإسرائيلية التي سرت في بعض الكتب الدينية، وما حرص عليه كثير من الولاة لتوطيد سلطانهم وتوهين القوى الواعية الرشيدة في شعوبهم؛ من طريق إشاعة الخرافات والأساطير، واحتضان المذاهب الفاسدة والشعائر الباطلة.

وما كان لي أن أتصور هذه المشاهد عل غير صورتها التي فطرها الله عليها. وما كان لي أن أقصدها التماسًا للبركة بالتمسح والمناجاة؛ وإنما أقصدها لأستنطقها ما انطوت عليه من عبر التاريخ، كما أقرأ ذلك في صحيفة، أو أتدبره في كتاب!

***

وأقلتنا السيارة فجر اليوم التالي في الطريق الذاهب إلى منى، وهناك على مسيرة بضعة كيلومترات، يقوم جبل النور شاهقًا منفردًا بين الجبال، يروى للإنسانية منذ أربعة عشر قرنًا إلى أن تقوم الساعة، تلك الآية الخالدة التي انبثقت أنوارها في قلب محمد بن عبد الله، وهو يتحنث في غار حراء!

ورقينا الجبل في مشقة حتى بلغنا قمته، ثم انحدرنا قرابة خمسين مترًا فإذا نحن أمام الغار، حيث كان محمد يقضي الليالي ذوات العدد في رياضة روحية، يستغرقه التأمل في ملكوت السموات والأرض،

والتطهر من نوازع البشرية وهموم الحياة؛ إذ كانت العناية الإلهيـة تعده لتلقى الرسالة الكبرى التى أضاء بنورها الخافقان.

واستغرقنى التأمل والاعتبار، فإذا أنا روح يحوم حول قمة الجبل ثم يحلق على باب الغـار، وإذا أضواء تنعكس على مشاعرى منبعثة من جوف الغار فتأخذ بالأبصار والقلوب، وإذا بـى أكاد أسمع صوتًا رفيقًا يقول: اقرأ..

فيجاوبه صوت آخر فيه دهشة وصدق: ما أنا بقارئ!

وأكاد أسمع صوت غطة بين جسمين، يتكرر بعدها الأمر والجواب..

حدث ذلك ثلاث مرات، كأن قد سمعت بعدها ذلـك الصوت الرفيق يقول:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[1]

مقابر المعلاة

قال صاحبى: حسبك. والآن إلى أين تريد أن تذهب؟

قلت: إلى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد. تلك الزوج الرءوم التى انصرف إليها محمد وقد أخذته حمى الوحى، فهو يرجف من خشية وإشفاق. ثم يدخل عليها وهو يقول: زملونى.. زملونى فتتلقاه خديجة حانية مواسية مشجعة..

---

(١) سورة العلق، وآياتها ١٩ وهى أول ما نزل من القرآن.

فيقول: لقد خشيت على نفسى!

فتقول له: كلا، والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتكرم الضيف، وتعين على نوائب الحق.

قال صاحبى: إذن إلى مقبرة المعلاة.

وتقع هذه المقبرة عند مدخل مكة من جهة (الحجون) ذلك الجبل الذى ذكره عمرو بن الحارث الجرهمى فى قصيدته المشهورة، وقد وقف يبكى مجد قومه (جرهم) إذ كانت لهم السيادة على البلد الحرام، فأدالتهم عنها (خزاعة) وأجلتهم إلى اليمن.

يقف عمرو بن الحارث الجرهمى يقول من قصيدته، وقد حيل بينه وبين دخول مكة:

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرفت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها، والقلب منى كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى، نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العوائر

وكانت مقبرة المعلاة ولا تزال - مثوى لموتى أهل مكة منذ الجاهلية حتى الآن. فهذا قبر عبد المطلب جد الرسول[1]. وهذا قبر أبى طالب

---

(١) للعالم الجليل الأستاذ حمد الجاسر تعقيب نشره بمجلة منبر الإسلام بالعدد ٩ السنة ١٨ على ما ذكره الدكتور هيكل فى كتابه (فى منزل الوحى) وما جاء فى كتابنا (فى أرض المعجزات) ينفى فيه وجود قبور عبد المطلب وأبى طالب والسيدة خديجة بالمعلاة. ويحيل فى ذلك إلى كتاب (البحر العميق فى الحج والعمرة إلى بيت=

عمه الذى حماه ونصره حين افتقد الحماية والنصر. وهذا قبر خديجة بنت خويلد، التى فقدها الرسول وفقد عمه أبا طالب فى عام واحد سماه عام الحزن. والتى لم يتزوج غيرها حتى لحقت بالرفيق الأعلى، وظل بعد موتها وفيًا لذكراها أيما وفاء، حتى قالت عائشة إنها لم تجد فى نفسها غيرة من أحد من نساء النبى ما وجدت من ذكره خديجة. وقد استبدت هذه الغيرة بعائشة ذات مرة فقالت تراجع الرسول:

- هل كانت إلا عجوزًا أبدلك الله خيرًا منها؟

قال: لا، لم يبدلنى الله خيرًا منها. صدقتنى إذ كذَّبنى الناس، ونصرتنى إذ خذلنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس. ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء!

.. وهذا قبر أسماء بنت أبى بكر. تلك التى كان لها فى تاريخ الهجرة - وهى جويرية صغيرة - شأن لا يغفل، وذكر لا ينسى..

أليست هى التى كانت تخرج فى جنح الظلام كل ليلة، تحمل الطعام إلى أبيها وإلى الرسول فى مخبئهما بغار ثور؟

ثم أليست هى التى سألها أبو جهل، وهو مغيظ محنق. عن أبيها أين ذهب، فلما أجابته: لا أدرى.. لطمها على وجهها لطمة أطارت قرطها وأسالت من أذنها الدماء؟

= الله العتيق) لابن الضياء الحنفى. وتحقيق الأماكن التاريخية فى الأرض المقدسة جدير بعناية علماء التاريخ والآثار، وللأستاذ حمد الجاسر والمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام جهود مشكورة فى ارتياد هذا الميدان نرجو أن تتصل أسبابها وتلتقى معها جهود الغيورين على هذا التراث الدينى والقومى.

بلى، وإن لها فى تـاريخ الإسـلام والبطـولة العربيـة شـأنًا لا يغفـل، وذكرًا لا ينسى..

أليست هى التى دخـل عليـها ابنـها عبـد الله بـن الزبـير، والحـرب مستعرة بينه وبين بنى أمية، يتعرف صبرها على فقده فيقول:

– يا أمه، خذلنى الناس حتى أهلى وولدى، ولم يبق معـى إلا قليـل. وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا، فماذا ترين؟

فتجيبه فى غير ما تردد:

– أرى أن تخرج إلى القتال ما دمـت تعتقـد أنـك علـى الحـق؛ فـوالله لضربة بسيف فى عز، أحب إلىّ من ضربة بسوط فى ذل!

فيقول: ولكنى أخشى أن يمثلوا بى بعد موتى..

فتقول: إن الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ!

.. بلى، وهذا قبر الشهيد عبد الله بن الزبير!

إلى دار الهجرة

وانطلقت بنا السيارة إلى جدة بعد الغروب، وكأنها تحمل أجسادًا قد انخلعت عنها قلوبها وأرواحها المتعلقة هنالك بأستار الكعبة!

ولكن طائفًا من النشوة والسرور رد إلينا هذه القلوب المنخلعة وتلك الأرواح الهائمة، فإذا هي تتواثب بنا في غبطة واشتياق، تكاد تسبق السيارة في انطلاقها البعيد.

ألسنا نغادر مكة في طريقنا إلى مدينة الرسول؟

وتناولنا العشاء في فندق البساتين بجدة، ثم تزودنا بشيء من الطعام والماء المثلج. وبدأنا رحلتنا قبيل منتصف الليل. وكان الجو منعشًا تغمره أنسام البحر الرطبة الباردة، بسامًا تتراقص فيه أشعة القمر الفضية الحالمة. وقد بدت الصحراء عن يمين وشمال، وعلى مد البصر البعيد. طروبة مزهوة بتلك المواكب الراكبة والراجلة، والتي تسرى في دروبها آمنة مطمئنة، يحدوها الشوق إلى زيارة مسجد النبي ومقامه الشريف.

وتمثلت في مسراى هذا قوافل الحجاج منذ عشرات السنين. وهي تنساب على ظهور الإبل فتبدد وحشة الليل ورهبة الصحراء بالأهازيج والأغاريد؛ إنها مواكب أفراح قدسية تغمر القلوب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر الجميلة وتعمر الصحراء بمشاهد الأنس والبهجة والانتشاء.

وتمثلت إلى جانب هذه الصورة الباسمة الجميلة، صورًا أخرى لما كان يخامر النفوس من القلق والحذر والإشفاق، وما كان يصيبها من غوائل الغدر والعدوان..

قلت: لئن حرمنا العهد الجديد بمواكب السيارات المتدفقة في عجلة واندفاع لا تلوى على شيء، الاستمتاع بتلك الصورة الجميلة الخافقة بألوان النشوة وأصداء الأهازيج والأغاريد؛ لقد عوضنا عن ذلك أمنا تغمر ظلاله الأرجاء، وتسيطر روحه حتى على مفاوز الصحراء.

على أن السيارة لم تكد تمضي بنا في طريقها البعيد ونحن نتمثل هذه الذكريات، حتى أدرنا جهاز الإذاعة فإذا بنا نعيش فجأة في جو تلك الأفراح القدسية، التي تغمر القلب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر العلوية الجميلة..

إنها أم كلثوم تحيي ليلتنا هذه في مطلع الرحلة المباركة بأنشودتها الروحية الخالدة:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمـــان تبسم وثناء!

لقد كانت تحية السماء تبارك بها خطواتنا المشوقة الهائمة، أرسلتها على لهاة معجزة الفن أم كلثوم، وانطلقت ترددها الإذاعة فتتردد أصداؤها في بطون الأودية ومعارج الجبال..

آثار موقعة بدر

ومررنا بقرية بدر التي شهدت في فجر الإسلام أول موقعة بين المسلمين ومشركي مكة. فطلبنا من سائق السيارة أن يعرج بنا على مكان

الموقعة، وهو بين كثبان من الرمل إلى يسار الطريق الذاهب إلى المدينة، بينه وبين المدينة نحو ٧٠ كيلومترًا.

وهناك وقفنا نشاهد الآثار التى خلفتها تلك الموقعة الخالدة، ونستشعر ما لهذه الأرض من مجادة وقداسة؛ إذ كانت مسرحًا اختلطت فيه الملائكة بالأبطال المغاوير من أصحاب محمد:

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

إن الأمر بين محمد وهؤلاء المشركين الذين أخرجوه وصحبه من ديارهم بعد أن ائتمروا به ليقتلوه، وبعد أن لجوا فى إيذاء المستضعفين من المسلمين الذين ظلوا بمكة.. لابد له من أن يبلغ غايته فى جولة رادعة!

وترصد المسلمون بالمدينة قافلة من قوافل قريش، كانت عائدة من الشام تحمل تجارة قدر ثمنها بخمسين ألف دينار، وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلاً.

وما إن بلغ الخبر أبا سفيان قبل وصوله إلى المدينة، حتى بعث رجلاً يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم. ووصل الرجل إلى مكة وقد قطع أذنىْ بعيره وجدع أنفه، وشق قميصه من قُبل ومن دبر وهو يصيح:

---

(١) الآية ١٢ سورة الأنفال.

يا معشر قريش.. اللطيمة، اللطيمة[1] أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها.. الغوث، الغوث!

وتداعى الناس من كل مكان فلم يبق فى مكة قادر على القتال إلا حمل سلاحه، وانطلقوا يقودهم أبو جهل لملاقاة محمد وأصحابه.

وتحول ميزان الموقف..

إن محمدا وأصحابه الذين خرجوا للقتال وعدتهم بضعة عشر وثلاثمائة، لن يكون أمامهم أبو سفيان وصحبه الأربعون وحدهم، بل إن قريشا قد أمدت هؤلاء بألف مقاتل.. فماذا هم فاعلون؟

واستشار محمد أصحابه..

فقال المقداد بن عمرو:

– يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[2] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون!

وعاد محمد فقال:

– أشيروا علىّ أيها الناس..

---

(١) المال والتجارة.

(٢) المائدة: الآية: ٢٤.

وكان يعنى الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم..

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى محمد وقال:

- لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل.

قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا؛ إنا لصُبرٌ فى الحرب، صدق فى اللقاء؛ لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله.

فأشرق وجه محمد - ﷺ ..

وقال لأصحابه:

سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين[1]، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم..

---

(١) كان الله قد وعد رسوله إحدى الطائفتين: جيش قريش، أو القافلة.. فلما أفلتت القافلة صارت الطائفة التى وعد بها الرسول هى جيش قريش.. ولكن البعض عارض وقال إنما خرجنا لنغنم الإبل وما تحمل ولم نخرج للقتال إذ لم نستعد له. فغضب النبى وجرت بينه وبين أصحابه هذه المشاورة التى انتهت بالإصرار على لقاء العدو. ونزلت الملائكة تقاتل فى صفوف المسلمين..

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾[1]

.. وهنا على هذه الأرض من قرية بدر التى مررنا بها فى طريقنا إلى المدينة، دارت المعركة بين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المسلمين، وألف من المشركين..

هنا العدوة الدنيا حيث نزل محمد وأصحابه، وهناك العدوة القصوى حيث نزلت قريش. وبينهما، ساحة المعركة الرهيبة وقد تلاقى فيها الجمعان..

وهنا فى هذا المكان كان يقوم عريش[2] يأوى إليه الرسول - - ﷺ - وفى هذا العريش وقف مستقبلا القبلة وقد اشتد به القلق، رافعًا يديه فى ضراعة وابتهال وهو يقول:

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) بناء كالخيمة.

اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى. اللهم إن تهلك هذه العصابة[1] اليوم لا تعبد).

ثم خفق خفقة من نعاس انتبه بعدها وقد علاه البشر، وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول:

والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة!

واندفعت جموع المسلمين على قلتها هاتفة: أحد، أحد..

ورأى بلال غريمه أمية بن خلف الذى كان ينزل به فى مكة أشد العذاب ليفتنه عن دينه؛ فصاح به: أمية رأس الكفر، لا نجوتُ إن نجا! وحمل عليه فقتله..

وكذلك قتل فى هذه الموقعة أبو جهل وكثير من زعماء قريش الذين كانوا حربا على الإسلام والمسلمين؛ وأسر المسلمون خمسين من المشركين..

وعاد الرسول إلى المدينة، وفرق الأسرى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيرا..

ثم استشار أصحابه فى أمر هؤلاء الأسرى..

فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان. وأبعدهم منك قريب. فامنن

---

(١) جماعة المسلمين.

عليهم – منّ الله عليك – أو فادِهمْ[1] يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم..

وقال عمر: يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب أعناقهم؛ هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطىء الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك..

وقام الرسول – ﷺ – فدخل قبته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس مختلفون فى أمر الأسرى، بعضهم يرى رأى أبى بكر، والبعض الآخر يرى رأى عمر..

وضرب الرسول – ﷺ – مثلاً فقال:

أما أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضاء الله وعفوه عن عباده. ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل، قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال:

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2]

وأن قال:

﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[3]

---

(١) أطلقهم مقابل فدية.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٦٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآية: ٣٦.

ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)

- ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله. ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾(٢)

وكمثل موسى إذ يقول:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٣)

وتشاور المسلمون في الأمر: القتل أم الفداء؟!

وانتهى الرأى إلى قبول الفداء..

وكان قد قتل من الأسرى اثنان هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط قبل أن يتخذ المسلمون قرارهم هذا. وسلمت أعناق الأسرى بالفداء، إلا واحدا أطلق سراحه بغير فداء هو الشاعر أبو عزة بن عبد الله الجمحي، فقد تقدم إلى الرسول يقول:

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٢) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٣) سورة يونس، الآية ٨٨.

– يا محمد، لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدّق بى عليهن!

فأمنه الرسول وأطلقه بغير فداء..

وكان من بين الأسرى سهيل بن عمرو رسول قريش فى معاهدة الحديبية وهو الذى اشتد فى صياغة مواد المعاهدة شدة أوغرت صدور المسلمين.

فلما وقع سهيل بن عمرو أسيرًا فى موقعة بدر، وقدم من مكة من يؤدى عنه الفداء، عز على عمر بن الخطاب أن ينجو سهيل دون أن يصيبه أى أذى. فقال للرسول:

– دعنى أنزع ثنيتىّ[1] سهيل بن عمرو ويدلع[2] لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا..

فقال الرسول – ﷺ – :

– لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا!

هذه صور وذكريات أوحى بها وقوفنا فى ميدان المعركة الخالدة، معركة بدر، ونحن نرى أمامنا فى هذا المكان مقابر الشهداء..

آبار على وبئر عروة

وقبل أن نبلغ المدينة بتسعة كيلومترات نزلنا بآبار على، وبالقرب منها موقع (ذى الحليفة) ميقات الإحرام لأهل المدينة.

---

(١) الثنايا : أسنان مقدم الفم.

(٢) يخرج من فمه.

ثم انطلقت بنا السيارة حتى بلغنا بئر عروة على بعد بضعة كيلومترات من المدينة. أنشأها عروة بن الزبير وأقام إلى جوارها قصرا منيفًا. وكانت البئر ولا تزال موردًا عذبًا ومناخًا جميلاً للقوافل المارة من هذا الطريق: لا يمر منه أحد إلا استقى من مائها العذب.

ولم يبق الآن شيء من آثار قصر عروة، ولكن البئر ما زالت تمد الواردين بمائها الفرات، وإلى جانبها بعض المقاهى التى تمتلىء فى ليالى الصيف بالسمار.

وفى بئر عروة يقول الشاعر السرى بن عبد الرحمن الأنصارى:

كفنونى إن مت فى درع أروى واستقوا لى من بئر عروة مائى
سخنة فى الشتاء باردة الصيف سراج فى الليلة الظلماء

.. ثم ها نحن أولاء على قاد[1] أميال من مدينة الرسول، تطالعنا ضواحيها ريانة باسمة، وها هى ذى قلوبنا تخفق بالشوق والحنين، ومآقينا تسبل بدموع الفرح والإشفاق..

ثم هاهى ذى المدينة المنورة تبدو من بعيد، فتنطلق الألسنة بالصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.

---

(١) قاد: قدر.

فى المدينة المنورة

وتنطلق السيارة فترقى بنا طريقًا وعرًا بين الصخور البركانية، إنها «الحرةُ» التى تشرف على المدينة من الجنوب. ثم تنحدر بنا فإذا نحن فى المدينة المنورة يغمرنا جوها الباسم وأنفاسها العطرة، وقد تطلعت قلوبنا نحو منائر الحرم وقبته الخضراء!

وأحسست بكثير من الحرج والحياء ونحن نخترق بالسيارة طرقات المدينة، فما كان ينبغى أن ندخلها إلا راجلين..

وتذكرت الإمام مالكا، وقد كان -- رضى الله عنه - لا يركب بالمدينة دابة قط، وكان يقول:

- أخشى أن يقع حافرها على محل مشى فيه رسول الله ﷺ!

وقصدنا إلى الفندق وحططنا رحالنا. ثم أخذنا زينتنا تأهبًا لزيارة المسجد النبوى، والتشرف بالسلام على صاحب الرسالة فى مقامه العظيم.

وكانت خطواتنا إلى المسجد خفيفة الوطء خاشعة الحركة. فعلى هذه الأرض سارت أقدام الرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار. وإنى لأكاد أحس هذه الأرض تتشقق فتنبعث منها أطياف الذكريات البعيدة، فإذا «طيبة» فى يوم عيد بهيج، وقد انتفضت عن رجالها ونسائها وأطفالها، فى مواكب تموج بقعقعة السلاح وأغاريد الفرح ونشوة النصر. وهى تحف

بمحمد وقد أردف خلفه أبا بكر وأرخى لناقته الزمام، فكان لا يمر بدار من دورها إلا صاح أهلها وهم يتعلقون بخطام الناقة:

يا رسول الله، هلم إلى القوة والمنعة، والعز والثروة، والعدد والعدة.

فيقول: خيرًا، بارك الله عليك. خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة.

فى المسجد النبوى

.. وظللت أتابع خطاى فى طريقى إلى الحرم النبوى وأنا أقول:

- «باسم الله لا قوة إلا بالله. رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا. حسبى الله آمنت بالله، توكلت على الله».

ذلك من آداب الزيارة - كما يقول الرسول - وإنى لأطمع -إذ أتأسى به فى هذا المقام- أن يتغمدنى الله بفضله فيكل بى سبعين ألف ملك يستغفرون لى، وأن يقبل علىّ - سبحانه بوجهه الكريم.

حتى إذا ولجت باب المسجد النبوى، وقفت أستجمع مشاعرى وأمسك أنفاسى، وأنا أتأهب لمواجهة أنوار النبوة التى أضاء بها الكون. منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام!

ودخلت المسجد فأديت الصلاة فى الروضة الشريفة. وتذوقت فى صلاتى هذه بين يدى الحى القيوم الذى تعنو لعظمته الوجوه. أسرار قوله - ﷺ -:

- «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة».

ثم أقبلت على المقام فى شوق طـاغ وقلـب مشبوب. إنـه مقـام الحـب والرحمة والهداية والنور. فما استفتحت بالسلام حتى عرتنى هزة عقـدت لسانى عن القول، وأطلقت مآقىّ بالدموع..

أى لسان يستطيع أن يفصـح فـى هـذا المقـام، وأى بيـان يسـتطيع أن يبين!

وعدت أستجمع مشاعرى وأمسك أنفاسى، وأنا أواجه أنوار النبوة التى أضاء بها الكون، منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام..

ثم توجهت إليه فى مقامه الكريم، أحييه وأناجيه:

– السلام عليك يا نبى الله.

السلام عليك يا حبيب الله.

السلام عليك يا صفوة خلق الله.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا معبود بحق سواه.

وأشهد أنك عبده ورسوله. بلغت الرسالة، وأديت الأمانـة، ونصحـت الأمة، وجاهدت فى سبيل الله.

ثم خطوت إلى اليمين أواجـه صاحبيـه أبـا بكـر وعمـر، وهـم ينعمـان بجوار الرسول فى مثواه، كما نعما بصحبته فى السراء والضراء فى دنياه. فألقيت التحية، وذكرت مواقفهما الخالدة فى تأييد دعوة الله، وبلائـهما الصادق فى نصرة رسوله. ثم دعوت لهما بما هما أهله مـن حسـن المثوبـة وعظيم الجزاء.

عمارة الحرم النبوى

حين قدم الرسول - ﷺ - إلى المدينة، كان أول ما شغل به هو إقامة مسجده هذا. وكان يعمل فيه بيده؛ حثا للصحابة على المشاركة فى البناء. وكان إذا اعترضه أحد يريد أن يحمل عنه قال له:

- اذهب فخذ غيرها، فلست بأفقر إلى الله منى!

ويهبّ كبار الصحابة للمشاركة فى العمل وهم يرتجزون:

لئن قعدنا والنبى يعمل

ذاك إذن للعمل المضلل

وقام المسجد إذ ذاك جدرانه من اللبن، وأعمدته من جذوع النخل. وسقفه من الجريد. ولكنه كان فى بساطته تلك آية الآيات فى روحه. وفيمن يضم من أئمة الهدى وأعلام الجهاد..

وتطورت عمارة الحرم النبوى، فزاد فيه عمر وعثمان. وأضيفت إليه حجرة النبى - ﷺ - التى دفن فيها، على عهد عمر بن عبد العزيز. وزاد فيه بعض الخلفاء والملوك وجددوا عمارته. حتى كانت العمارة الحالية التى تمت يوم ٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٥. وقد سعدت بالمشاركة فى هذا العمل المبرور، إذ كنت قبل تمام البناء أؤدى العمرة وأزور المسجد النبوى. وكان العمل وقتئذ قائمًا فى بعض منائر الحرم، فحملت مع العمال الرمل والحصى، ورفعت بعض الحجارة إلى مكانها من البناء.

أسوة بما فعله الرسول – ﷺ – واغتنامًا لهذه الفرصة التى قلما يجود بها الزمان..

قال صاحبى: هل أتاك نبأ العمارة التى أحدثها نور الدين بن زنكى فى الحجرة النبوية؟

قلت: حدثنى بها..

قال: كان نور الدين مشغولا بحرب الصليبيين فى أواسط القرن السادس للهجرة، وإنه لفى ذات ليلة إذ رأى فى منامه رؤيا أفزعته؛ رأى النبى – ﷺ – يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول:

– أنجدنى، أنقذنى من هذين؟

رأى هذه الرؤيا ثلاث مرات فى ليلته تلك. فأرسل فى طلب وزيره جمال الدين الموصلى، وكان معروفًا بالتقوى والصلاح، وقص عليه رؤياه.

فقال الوزير: وما قعودك؟ هذا أمر حدث فى مدينة الرسول – ﷺ – ليس له غيرك..

وما طلعت الشمس حتى كان نور الدين فى طريقه إلى المدينة هو ووزيره، ومعهما ألف راحلة. حتى إذا بلغها بعد مسيرة ستة عشر يومًا قصد إلى المسجد وصلى فى الروضة، ثم استدعى أهل المدينة فوزع عليهم ما كانت تحمل القوافل من أموال وأرزاق.

ثم قال: أبقى أحد لم يأخذ حظه؟

قالوا: لم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس صالحان غنيان، لا يأخذان من أحد شيئًا، ويكثران الصدقة على المحاويج.

قال: علىّ بهما.

وجىء بالرجلين فرأى فيهما شبهًا من ذينك اللذين رآهما فى المنام..

ولكنهما كانا فى حديثهما مثالا للتقوى والصلاح. وإن أهل المدينة ليشهدون بأنهما يصومان الدهر، ويلازمان الصلاة فى الروضة. ويكثران من زيارة الحجرة النبوية والبقيع وبقية المشاهد الأخرى. ولا يردان لسائل حاجة.

على أن ذلك كله لم يبدد ما وقر فى نفس نور الدين من وساوس وشكوك. فقصد إلى دارهما فرأى فيها مالا كثيرًا. وأخذ يجوس خلال الدار، ثم رفع حصيرا فى إحدى الغرف فإذا تحته سرداب يتجه صوب الحجرة النبوية!

واضطربت المدينة حين بلغها النبأ، والناس بين مصدق ومكذب..

ولكن الرجلين - وقد برح بهما الضرب-- اعترفا لنور الدين بالسر الخطير..

لقد أوفدهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة، وأمدوهما بأموال طائلة للاحتيال على سرقة جثمان الرسول!

فأمر نور الدين فضربت عنقاهما. ثم عمد إلى الحجرة النبوية فحفر حولها خندقًا عظيما حتى بلغ منابع الماء. ثم صب الرصاص حتى امتلأ الخندق وصار منه سور متين لا تنفذ إليه يد آثمة، أو تنال منه يد الزمان.

أطياف الذكريات

وسهرت ليلتى الأولى بالمدينة، وكأن الوحى فيها لم ينقطع ونحن إلى جوار الرسول!

هذه أطياف الذكريات تخفق حولى صاعدة هابطة، تصل ما بين الأرض والسماء..

وهذه صور الماضى تتواثب أمامى حية نابضة، فإذا أنا أعيش فى أعماق التاريخ البعيد.

وهذا محمد وقد بركت ناقته حيث شاء الله لها أن تبرك، وهذا هو ذا يقيم مسجده وبيته، ويلحق بهما مأوى لأهل الصُّفة من الضعفة والفقراء.

وها هم أولاء الأنصار من الأوس والخزرج يستبقون الحفاوة والإيثار على أروع صورة شهدتها الإنسانية؛ فينزلون المهاجرين فى دورهم، ويقاسمونهم أموالهم. بل إن أحدهم تكون له أكثر من زوجة، فيطلق أجملهن وآثرهن عنده ليزوجها من أخيه المهاجر فى سبيل الله!

وها هو ذا محمد يبارك هذه الرابطة الروحية التى صاغت للبشرية أروع نماذج الإخاء والتضحية والوفاء، فيجعل من كل اثنين من المهاجرين والأنصار، أخوين لهما كل حقوق الأنساب والدماء..

ثم ها هى ذى «طيبة» تلك البلدة المغمورة الثاوية فى قلب الصحراء، تشهد ميلاد الإنسانية فى تاريخها المشرق الرشيد، وتتدفق منها موجات

الهداية والنور والخير والجمال، فتبدد غياهب الظلم والظلام. وتطهر البشرية من أرجاس العبودية لغير الله، وتشرع للمجتمع الإنسانى تقاليد خالدة من التكافل والتراحم والعدل والمساواة.

.. وانطلق أذان الفجر من مآذن الحرم، يشق سكون الليل ويوقظ قلوبًا لا تنام!

وتذكرت بلالا فى موقفه ذاك على سطح الحرم، وقد ارتفع صوته الجميل بالتكبير والتهليل. وما خفت هذا الصوت يومًا حتى وهو يعانى سكرات الموت على رمضاء مكة، وقد شد وثاقه بالحبال، وألقيت على صدره الخافق بالتوحيد قطع الجبال!

وأقيمت الصلاة، فكأنما كنا نصلى مؤتمين بالرسول فهو بيننا حاضر بجسمه الطاهر، وإن روحه لتغمر المسجد وتعمر القلوب. وهل فى حضرة الرسول يتقدم غيره من إمام؟!

ثم انصرفنا مع طلوع الشمس إلى الفندق. ريثما نتناول بعض الطعام والشراب ونلتمس قسطًا من الراحة. وعدنا إلى منطقة الحرم لزيارة بعض المعالم التى تحيط به، والتى تحمل أرواحًا من تلك الذكريات البعيدة الخالدة..

فهذه دار أبى أيوب الأنصارى، التى أقام بها الرسول لأول عهده بالمدينة حتى أتم بناء بيته فى المكان الذى يثوى فيه جثمانه الطاهر. وها هو ذا أبو أيوب الأنصارى يحدثنا عن ذكرياته فيقول:

– لما نزل عليّ رسول الله – ﷺ – فى بيتى، نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو، فقلت له:

يا نبى الله، بأبى أنت وأمى، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى. فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل.

فقال: يا أبا أيوب، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت.

ثم هذه هى ذى دار أبى بكر، وهذه دار عثمان..

نعم هذه دار عثمان التى شهدت أفجع صورة لمصرع هذا الإمام الشهيد، والتى انبعثت منها الشرارة الأولى التى أشعلت نار الفتنة الكبرى فى تاريخ الإسلام والمسلمين..

جنة البقيع

ثم خرجنا إلى ظاهر المدينة لزيارة «البقيع» حيث قبور عشرة آلاف من الصحابة والشهداء والأئمة وأهل بيت النبوة، أولئك الذين سطروا بدمائهم وأرواحهم أروع آيات البطولة والجهاد والاستشهاد فى سبيل الله، وأقاموا بتضحياتهم الفذة وإيمانهم العميق دعائم الدين الحنيف.

وفى طريقنا إلى البقيع مررنا ببعض جوانب السور العظيم الذى كان يحيط بالمدينة، فيحميها من عدوان البدو وهجماتهم المتكررة على أهلها.

وكان أول من أقام سورًا حول المدينة الملك عضد الدولة بن بويه عام ٣٦٠ هـ، ولم يبق لهذا السور أثر. وكذلك السور الذى أقامه جمال الدين الجواد الأصبهانى عام ٥٤٠ هـ.

أما السور الذى بقيت آثاره حتى الآن فقد أنشأه سليمان القانونى عام ٩٤٨ هـ وكان يبلغ طوله أربعة آلاف ذراع، وبلغت نفقته مئة ألف دينار ذهبًا، عدا ما استخدمه من مواد البناء التى حملها من مصر، وآلاف الأرادب من القمح والأرز والفول والشعير وغيرها من مواد التموين. وقد استغرق بناء هذا السور ثمانية أعوام.

ثم طالعنا البقيع خارج المدينة، فدخلنا إليه فى هيبة وخشوع. وتذكرت وأنا أخطو فى أرضه الطاهرة خطواتى الأولى، محمدا - ﷺ - وهو يودع يومًا بعد يوم من يستشهد من أصحابه وأنصاره. ثم وهو يتردد على هذا المكان بين الفينة والفينة للذكرى والترحم على ساكنيه، وأذكره حين بدأ وجعه الذى مات فيه يخرج إلى البقيع فى جوف الليل ومعه غلامه أبو مويهبة، فيقول له:

- يا أبا مويهبة، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع.

ثم يقول - ﷺ:

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى..

ثم يقول لغلامه:

– يا أبا مويهبة، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة..

قال الغلام: بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة!

قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة!

ها نحن أولاء فى جنة البقيع..

على أنك لا تستطيع أن تتبين قبر واحد من أولئك الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت، إلا إذا صحبك الدليل أو «المزوِّر» كما يقولون.

ذلك لأن جميع هذه القبور قد سويت مبانيها ومعالمها بالأرض، كما سويت مقابر المعلاة فى مكة. وقد نهى الرسول – ﷺ عن إقامة الأضرحة والتهاويل فوق القبور، ولكن كان يجدر أن يظل على كل قبر شاهد يحمل اسم صاحبه للذكرى؛ فليس فى نشدان الذكرى والترحم على الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت وغيرهم، ما يتنافى مع ما أوصى به الرسول وشرعه فى زيارة القبور.

إن محمدا حين دفن ولده إبراهيم، هنا فى البقيع، سوّى على قبره بيده ثم أعلم بعلامة وقال:

– «إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحى، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه».

ذو النورين

.. هنا يرقد ذو النورين عثمان بن عفان. الخليفة الشهيد، وأول مهاجر فى الإسلام. والذى جهز جيش العسرة بألف دينار، فجعل الرسول يقلب هذه الدنانير فى حجره ويقول:

– اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض. ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم!

نعم، ولقد أصاب الناس فى عهد أبى بكر قحط شديد، فذهبوا إليه وقالوا:

– يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فماذا نصنع؟

قال: انصرفوا واصبروا، فإنى أرجو ألاّ تمسوا حتى يفرج الله عنكم..

فلما كان آخر النهار، وردت الأنباء بأن عيرا لعثمان بن عفان قدمت من الشام وتصبح فى المدينة، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتًا وزبيبًا. فأناخت عند باب عثمان، فلما جعل أحمالها فى داره، جاء التجار فقال لهم:

– ما تريدون؟

قالوا: إنك لتعلم ما نريد.. بعنا من هذا الذى وصل إليك؛ فإنك تعلم حاجة الناس إليه.

فقال عثمان: حبًا وكرامة. كم تربحوننى على شرائى؟

قالوا: الدرهم درهمين.

قال: أعطيت زيادة على هذا..

قالوا: أربعة دراهم.

قال: أعطيت أكثر..

قالوا: نربحك خمسة.

قال: أعطيت أكثر..

فقالوا: ما فى المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا أحد إليك. فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا؟

قال: إن الله قد أعطانى بكل درهم عشرة، فهل عندكم زيادة؟

قالوا: لا..

قال: فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين!

نعم، وإنه لهو الذى وحد المسلمين على القرآن يتلونه بلسان قريش، فلا تتبلبل ألسنتهم ويختلف كتابهم..

والذى امتدت فى عهده موجات الدعوة الإسلامية، فشملت بحر الروم وشمالى إفريقية غربًا، وغمرت أواسط أوربا وآسيا شمالا، ثم بلغت حدود الهند شرقًا – فى فترة قصيرة من الزمان.

ولكن هذه المآثر المتصلة فى حياة عثمان، وتلك المفاخر التى قال الرسول فى إحداها ما قال، لم تشفع لعثمان فيما أخذ عليه من إيثار

بعض ذوى قرباه بولاية الأمصار، فاضطغنت عليه القلوب ولم تزل بها بقية من سورة الجاهلية، فنالته سيوفهم غيلة وهو يتلو كتاب الله!

***

ثم ها هو ذا قبر الحسن بن على، الذى أصلح الله به بين فئتين واتقى به المسلمون اطراد الفتنة فى عهد معاوية. وبذلك وهب الدولة الإسلامية فترة استقرار تنصرف فيها إلى نشر دعوتها فى الآفاق..

وهنا يرقد زين العابدين بن الحسين، الذى شهد وهو فتى صغير مأساة كربلاء الدامية، وعاش فى جوها الراعب الرهيب. إنه ليقبل على أبيه وقد علم أنهم مخيرون بين التسليم والموت فيقول:

- ألسنا على الحق؟

فيجيبه الحسين: بلى، والذى يرجع إليه العباد.

فيقول الفتى قولته الخالدة:

- يا أبه، فإذن لا نبالى!

العباس وبيعة العقبة

وهذا قبر العباس بن عبد المطلب. وقد كان له موقفه من الأنصار الذين قدموا يدعون محمدا إلى الهجرة - ولم يكن العباس يومئذ قد أسلم بعد- ولكنه أراد أن يستوثق لابن أخيه فيما هو مقبل عليه، وأن يطمئن إلى صدق هؤلاء الأنصار فى دعوته وحمايته.

كان ذلك عند العقبة، وقد وفد على الرسول ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ليبايعوه البيعة الكبرى ويدعوه للهجرة إلى المدينة. فقال لهم العباس:

- يا أهل يثرب: إن محمداً منا حيث قد علمتم. وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه..

قالوا: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت..

فتكلم الرسول..

ومد إليه سيد القوم يده وهو يقول:

- بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر!

ولكن أحدهم ينبرى فيقول:

- يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال - يعنى يهود يثرب - حبالا نحن قاطعوها. فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم الرسول وقال:

– بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وهموا بمبايعة الرسول، ولكن أحدهم يعترضهم قائلا:

– يا معشر الخزرج، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل؟

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه.. فمن الآن فدعوه؛ فإنه والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه. على نهكة الأموال وقتل الأشراف. فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

فمالنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟

قال: الجنة!

***

.. وهذا قبر الإمام مالك. وهنا وهناك قبور جماعة من أهل الفقه والرواية. منهم عبد الله بن مسعود، وأبو سعيد الخدرى..

وهذا جدث عبد الرحمن بن عوف، الذى استخلفه عمر فى الصلاة بالناس على أثر اغتياله..

وهذا قبر سعد بن أبى وقاص الذى دان له النصر فى كل ميدان..

قال المستشرق الحاج عبد الله برخارت:

– لقد بلغت المدينة من الغنى برفات القديسين العظماء، ما كاد يفقد معه كل من هؤلاء جلال العناية بذاته، على حين تكفى بقية من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة!

غزوة أحد

وحملتنا السيارة صباح اليوم التالى إلى «أحد» شمالى المدينة بعدة أميال. ذلك الجبل الذى شهد أول رجفة فى الإسلام زلزلت القلوب والأقدام، واصطرعت فيها قوى الإيمان تقذف بها قلوب المسلمين، وما تغلى به قلوب المشركين من سورة الحقد والثأر والانتقام..

إن المسلمين قد دارت عليهم الدائرة بعد غلبة وانتصار، فتهاوت أعناقهم وسالت دماؤهم وتفرقت صفوفهم، حتى انكشف الرسول للعدو وانهالت قذائفهم حتى سقط على الأرض تنزف منه الدماء..

قال أنس: كسرت رباعية[1] النبى – ﷺ – يوم أحد، وشج فى وجهه، فجعل يسيل الدم على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2].

---

(١) الرباعية: السن التى بين الثنية والناب.

(٢) الآية ١٢٨ سورة آل عمران.

قيل: إن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كسر رباعية الرسول السفلى وجرح شفته العليا.

وأن سعد بن أبى وقاص قال: ما حرصت على قتل رجل قط، حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص، لما صنع برسول الله ﷺ!

وتلقى أم عمارة الأنصارية ما كان بيدها من السقاء، وتستل سيفًا فتقف به إلى جوار الرسول تنافح عنه وقد تصايح القوم يطلبون رأسه، فتثير بموقفها هذا الرائع حمية المنهزمين من الرجال!

وهناك. كانت هند زوج أبى سفيان تندب قتلى بدر وتلهب مشاعر قومها بنار الحقد والثأر، فيشتدون فى التقتيل والتمثيل. ولا تطيب نفسها إلا أن تجدع الأنوف والآذان. ثم تبحث عن جثة حمزة قاتل أبيها فى بدر، فتأبى إلا أن تبقر بطنه وتنزع كبده فتلوكها بين أنيابها فى وحشية حمراء!

.. ثم يقف محمد على جثمان عمه حمزة وقد مثل به القوم شر تمثيل فيحوقل[1] ويسترجع[2] فى لوعة طاغية ويقول:

لن أصاب بمثلك أبدًا. وما وقفت موقفًا قط أغيظ لى من هذا! والله لئن أظهرنا الله عليهم يومًا من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب..

---

(١) لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) إنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد غلب الحزن على رسول الله، حتى استبدت به المشاعر البشرية، وثارت به حمية الدم فقال ما قال، حتى نزل عليه قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

عندئذ تطامنت نفسه، وهدأت ثائرته، واستوت على أقطار روحه مشاعر النبوة الصافية..

وها نحن أولاء نقف على قبر حمزة سيد الشهداء، فى بطن الوادى من جانب أحد، نسترجع تلك الصور المضرجة بأزكى الدماء، المشرقة بنور الإيمان والتضحية والفداء.

فى وادى العقيق

وانطلقت بنا السيارة إلى وادى العقيق خارج المدينة، هذا الوادى الذى وصفه عمر بن الخطاب بأنه واد مبارك، والذى كان عامرًا فى العصور الإسلامية الأولى بالقصور والبساتين الغناء.

ومررنا بقصر سعيد بن العاص أحد ولاة المدينة فى عهد بنى أمية، وكان رجلا مشهورًا بالكرم الذى تضرب به الأمثال. وهذا القصر هو

---

(١) سورة النحل.

الأثر الوحيد الباقى من تلك العصور البعيدة، وقد تهدمت بعض جوانبه، ولكن الزائر يستطيع أن يلمح من خلال أطلاله صورًا لفن العمارة فى ذلك العهد.

وانطلقت بنا السيارة بين البساتين والمزارع والدور الحديثة التى عمرت هذه المنطقة، حتى بلغنا المكان الذى وقعت فيه غزوة الأحزاب.

وهذا هو الجبل الذى كان يعسكر عليه الرسول - ﷺ - قد أقيم مكان المعسكر مسجد صغير، كما تناثرت عدة مساجد صغيرة أخرى على الهضاب المجاورة حيث كان يعسكر قواد المسلمين.

غزوة الأحزاب

إنها الغزوة التى ائتلفت فيها قوى اليهود الماكرة، مع قوى مشركى مكة للثأر والانتقام من محمد ودعوته.

فقد كان آخر سهم ادخره اليهود لحرب محمد، هو محاولة تأليب قريش وقبائل العرب الأخرى للقضاء عليه فى جولة تعبئ فيها جميع القوى وتضرب ضربتها الحاسمة.

وتزعم هذه المؤامرة حيى بن أخطب وجماعة من زعماء اليهود، فقدموا على قريش فى مكة يؤججون نار الحرب والانتقام. وسأل أهل مكة حيى ابن أخطب عن قومه فقال:

- تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه.

قالوا: وبنو قريظة؟

قال: أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد، حتى تأتوهم فيميلوا معكم..

قالوا: يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد.. أفديننا خير أم دينه؟

قال زعماء اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ [2] وَٱلطَّٰغُوتِ [3] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

واستجابت قريش لدعوة اليهود إلى قتال محمد، ثم تابع اليهود تأليبهم بين القبائل الأخرى، وخرجت الأحزاب للقتال.

خرجت قريش فى أربعة آلاف جندى وثلاثمائة فارس وألف راكب على الجمال، وعلى رأسهم أبو سفيان.

وخرجت بنو فزارة فى جند كثيف، ومعهم ألف بعير.

---

(١) سورة النساء.

(٢) اسم صنم.

(٣) الطاغوت: الشيطان، كل متعد، كل معبود من دون الله.

وخرجت أشجع ومرة، كل منهما فى أربعمائة محارب.

وانحازت إليهم عدة قبائل أخرى، حتى بلغ جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل.

وعلم محمد وصحبه بالأمر..

وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف، الذى لا قبل للمسلمين على حربهم..

إنها القارعة!

وقال بعضهم: لا سبيل لملاقاة العدو، ولا مناص من التحصن داخل المدينة.

ولكن ماذا يجدى التحصن أمام هذه القوى الساحقة؟

وأبدى سلمان الفارسى رأيا: إنه ليعلم من أساليب الحرب ما لا عهد للعرب به، فقد أشار عليهم بأن يحفروا خندقًا حول المدينة..

وهنا، فى هذا المكان من وادى العقيق، اندفع المسلمون يحفرون الخندق الذى أشار به سلمان الفارسى. وكان الرسول - ﷺ - بينهم يضرب الأرض، ويحمل التراب والركام..

واستمر هذا العمل الجبار بوسائله البدائية ستة أيام حتى تم حفر الخندق. وأقيمت الحجارة على جانبه من جهة المدينة ليكون حاميًا للرماة.

وأقبلت الأحزاب فى عشرة آلاف مقاتل من جهة أحد، فلم تجد محمدا هناك، فانحدرت إلى المدينة فإذا بها تواجه الخندق..

وكان محمد يرابط فى ثلاثة آلاف رجل، معتصما بجبل «سلع» وقد ضربت خيمته الحمراء على المكان الذى شهدنا فيه مسجد الفتح الصغير.

وأسقط فى أيدى الأحزاب فلم يدروا ماذا يفعلون، وفكر حيى بن أخطب زعيم اليهود فى حيلة يحطم به استحكامات الدفاع التى فاجأ بها محمد الأحزاب.

وتسلل إلى المدينة حتى أتى يهود بنى قريظة، وكان بينهم وبين محمد عهد وميثاق، وقال لكعب بن أسد:

- ويحك كعب، جئتك بعز الدهر، ببحر طام، وجئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه!

لكن كعب بن أسد قدر الأمر على جميع وجوهه، وخشى أن تفشل الأحزاب فيصيبه هو وقومه البوار والدمار، لنكثهم العهد الذى بينهم وبين محمد..

وما زال حيى بن أخطب به حتى أقنعه بالانتقاض على محمد، والانضمام إلى الأحزاب. وكانت طعنة غادرة فى ظهر المسلمين زلزلت الأقدام والقلوب!

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ ﴾(١)

واقتحمت الأحزاب الخندق بخيلهم..

فبرز لهم على بن أبى طالب فى جماعة من المسلمين يسدون عليهم الطريق.

وتقدم عمرو بن عبد ود ينادى:

- من يبارز؟

فلباه على بن أبى طالب..

فأشاح عمرو بوجهه وقال فى كبرياء:

- لمَ يا ابن أخى؟ فوالله ما أحب أن أقتلك!

وقال على:

لكنى والله أحب أن أقتلك!

---

(١) سورة الأحزاب.

وتبارز الفارسان فى جولة رهيبة..

وقتل على غريمه البطل!

وفرت خيل الأحزاب مولية الأدبار..

ولكن المعركة لم تنته بعد، فقد طالت أيام الحصار، واستمرت المناوشات، والأحزاب لا تستطيع أن تنال من محمد وقومه نيلا يحقق أحلامها الحمراء..

وكان الرسول قد أنزل نساءه وعمته صفية فى حصن يقال له «فارع» وجعل معهم حسن بن ثابت. فصعد يهودى إلى الحصن فقالت صفية.

- يا حسان، قم إليه حتى تقتله.

قال: لا، والله ما ذاك فىَ، ولو كان فىَ لخرجت مع رسول الله ﷺ!

فأخذت صفية سيفه وصعدت فوق الحصن وأطاحت برأس اليهودى، ثم عادت فقالت لحسان:

- قم فاسلبه[1]، فإنى لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل.

قال: ما لى بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب!

وأسلم نعيم بن مسعود الأشجعى دون أن يعلم به قومه، وجاء إلى الرسول - ﷺ - فقال له الرسول: خذل[2] عنا..

---

(١) خذ ما معه من مال وسلاح.

(٢) بث الخذلان فى صفوف الأعداء.

فمضى إلى بنى قريظة، وكان نديمًا لهم فقال:

– قد عرفتم محبتى.

قالوا: نعم.

فقال: إن قريشا وغطفان ليست هذه بلادهم، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها، وإلا رجعوا إلى بلادهم، وتركوكم فى البلاد مع محمد، ولا طاقة لكم به..

قالوا: فما ترى؟

قال: لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا.

فاقتنعوا برأيه..

ثم توجه إلى قريش فقال لهم:

إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد، فراسلوه فى الرجوع إليه، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رُهنًا فأقتلهم.

ثم جاء غطفان وقال لهم مثل ذلك..

فلما أصبح أبو سفيان أرسل عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قريظة يقول لهم:

إنا قد ضاق بنا المنزل، ولم نجد مرعى، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا.

فأجابوا: إن اليوم يوم السبت، ولا نعمل فيه شيئًا، ولابد لنا من الرهن منكم لئلا تغدروا بنا..

فقالت قريش: هذا ما حذركم نعيم!

وأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إنا لا نعطيكم رهنًا، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا.

وقالت قريظة: هذا ما أخبرنا نعيم؟!

ووقع الخذلان فى صفوف الأحزاب..

ثم كانت الليلة الفاصلة، ليلة هبطت فيه على المسلمين نجدة من جند السماء..

فقد عصفت الريح عصفًا شديدًا فاقتلعت خيام الأحزاب، وكفأت قدورهم، وانهالت السماء بالأمطار، وقصفت بالرعود والبروق..

وقال أبو سفيان:

يا معشر قريش، والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع[1] والخف[2]، وأخلفتا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإنى مرتحل..

وانطلقت الأحزاب هاربة لا تلوى على شىء. وأشرقت شمس الصباح، ونظر محمد وأصحابه فإذا ميدان المعركة ليس فيه إلا أشلاء الخيام والقدور..

وكفى الله المؤمنين القتال!

---

(١) الكراع: طرف الساق، ويقصد بذلك هلكت الخيل والدواب.

(٢) هلك الخف: أى هلكت الإبل.

مسجد القبلتين

ثم عادت بنا السيارة تشق طريقها بين المزارع والبساتين إلى مسجد القبلتين..

وكان الرسول إلى ما بعد مقامه بالمدينة سبعة عشر شهرًا، يؤدى الصلاة مستقبلاً بيت المقدس. وأراد اليهود أن يمكروا به ليخرجوه من المدينة، بعد أن حبطت دسائسهم التى حاكوها منذ أول يوم قدم فيه، فقالوا له:

- إن من سبقك من الرسل ذهبوا إلى بيت المقدس، وبه كان مقامهم. فإن تكن رسولا حقًا فاصنع مثل ما صنعوا، ولتكن المدينة مقامًا وسطًا فى هجرتك بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

وضاق الرسول بمكرهم هذا، وظل موزع القلب حائر الفؤاد. حتى إذا كان قائمًا يصلى فى هذا المسجد بظاهر المدينة مستقبلاً بيت المقدس، نزل عليه قوله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(البقرة: الآية: ١٤٤)

فتحول الرسول وهو قائم فى صلاته تلك من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام..

مسجد قباء

ثم انطلقت بنا السيارة إلى «قباء» تلك القرية التى استقبلت الرسول قبيل وصوله إلى المدينة. فأقام بها هو وصاحبه أبو بكر أربعة أيام، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام.

وكان - ﷺ - يحمل الحجر أو الصخرة فيأتى الرجل من أصحابه ويقول: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أعطنى أكفك..

فيقول الرسول: لا، خذ مثله..

وكان عبد الله بن رواحة يتغنى وهم يبنون فيقول:

أفلح من يعالج المساجدا

فيردد الرسول قوله: المساجدا..

ويقرأ القرآن قائما وقاعدا

فيردد الرسول: وقاعدا..

ولا يبيت الليل عنه راقدا

فيردد الرسول: راقدا..

حتى تم بناء المسجد الذى نزل فيه قوله تعالى:

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾[1].

---

(١) من الآية ١٠٨ سورة التوبة.

وكان الرسول – ﷺ – يأتى مسجد قباء كل سبت راكبًا أو ماشيًا ويصلى فيه ركعتين. قال – ﷺ:

– من تطهر فى بيته، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة.

***

.. وأتممنا فى المدينة المنورة أيامًا أربعة، وددنا لو أنها طالت فكانت الشهور والأعوام. كنا نقبل على المسجد النبوى فنكثر فيه من الصلاة. وإنها لتعدل فى أجرها ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام. لما تفيضه من مشاعر وما تثيره من جلال الذكرى وروعة المقام. ثم ننفلت من صلواتنا فنعود إلى المدينة نرتاد معالمها الأثرية، ونسترجع تلك الذكريات الرائعة حين كانت المدينة المنورة محور التاريخ الإسلامى وقطب رحاه، ومصدر الإشعاع النبوى المنطلق فى كل اتجاه، والقلب الذى تتدفق شرايينه فى مختلف الأقطار والأمصار، فتحيى موات الإنسانية وتجدد شباب الحياة..

وأنشد صديقى ونحن نأخذ أهبتنا لمغادرة المدينة المنورة قول الشاعر:

ودِّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟

نعم، وما أروع اللحظات التى استقبلنا فيها مقام الرسول نلقى عليه تحية الوداع!

العودة إلى جدة

وعادت بنا السيارة إلى جدة..

ومدينة جـدة هـى الثغـر الأول للمملكـة العربيـة السـعودية. وأول مـن اتخذها مرفأ للحجاز هو الخليفة عثمان بن عفان. وكـان - رضـى الله عنه - قد خرج من المدينة عام ٢٦ هـ فأتى مكة معتمرا. فطلب منه أهـل مكة أن ينقل ساحلها القديم من الشعيبية - - جنوبى مكة بنحو عشـرين كيلو مترًا - إلى جدة، لأن ميناء الشعيبية كثير الشعاب. فذهـب إلى جـدة ودرس موقعها وشاطئها، واغتسل من بحرها وقال: إنه مبارك. ومنذ ذلك التاريخ صارت جدة مرفأ مكة والحجاز كله.

وفى عام ٩١٥ هـ أقام السلطان الغورى سورًا حول جدة لحمايتـها مـن غزو الإفرنج الذين بدأوا يتجهون نحو استعمار الشرق. وقد أفاد ذلـك فـى منع البرتغاليين حينما حاولوا ذلك عام ٩٤٨ هـ للوصـول منـها إلى مكـة، فأصلتـهم قلعتـها نـارًا حاميـة، واضطرتهـم إلى الفـرار بمراكبـهم وكـانت عدتها ٨٥ مركبًا، بعد أن تركوا وراءهم جميع ما كان معهم من الذخائر.

وكان بسور جدة خمسة أضلاع وبـه تسـعة أبـواب. وقـد زال أثـر هـذا السور الآن، وإن بقيت مواضع فى جدة تحمل اسم بعض أبـواب السـور، ومنها لموضع المعروف الآن بباب مكة.

وقد امتد العمران فى هذه المدينة إلى الشرق فى طريق مكة، وإلى الشمال فى طريق المدينة. ونشأت هنالك أحياء جديدة تكاد تؤلف مدائن أخرى على أحدث طراز.

وبالقرب من الميناء تقوم مدينة الحجاج، لاستقبال الوافدين منهم عند وصولهم إلى جدة وعند إبحارهم منها للعودة إلى بلادهم، وهى تتسع لنحو عشرة آلاف حاج.

وفى جدة مزار يقال إنه قبر أمنا حواء..

ويقع هذا القبر بالقرب من المطار، وتدل آثاره على أن طوله يبلغ نحو ١٠٥ من الأمتار. وكانت تقوم عليه قباب وأبنية. وقد ذكر البتنونى فى رحلته أن الشريف عون أمير مكة حينما أراد هدم تلك القباب، تعرض له قناصل الدول الأجنبية فى جدة، باعتبار أن حواء أم البشر جميعًا، وليست أم المسلمين وحدهم!

مع الرسول فى الطائف

قال صاحبى:

– أما وقد أتممنا شعائر الحج والزيارة، ولدينا فسحة من الوقت قبل مغادرة هذه الأرض الطيبة، فإنى أرى أن نستكمل المواقف التاريخية فى هذه البلاد. وقد اتصلت معرفتنا خلال موسم الحج بالمواقف الهامة فى مكة والمدينة وجدة، ولم تبق إلا مدينة أخرى ذات تاريخ فى الجاهلية والإسلام، تلك هى مدينة الطائف.

وآثرت أن تكون زيارتنا للطائف بالسيارة لا بالطائرة، حتى يتاح لنا أن نشاهد كثيرًا من معالم الطريق، ونستمتع برحلة قد يكون فيها بعض العناء، ولكن فيها إلى ذلك كثير من المتعة والفائدة.

وحملتنا السيارة ذات ضحى من جدة إلى مكة، وتناولنا طعام الغداء بفندق مصر، ثم غادرنا مكة بعد العصر متجهين إلى الشرق.

ومررنا فى الطريق بجبل النور حيث يقع على قمته الشاهقة غار حراء، وبعد ساعة وصلنا إلى قرية (الشرائع) ثم ظلت السيارة تسير بنا بين الرمال والجبال حتى وصلنا إلى واحة جميلة تروى بمياه تنساب من بين الصخور، هى واحة، (الزيما) ويكثر فى هذه الواحة النخيل وشجر الموز.

ثم تابعت السيارة فى سهل رملى فسيح. وما إن اختفى قرص الشمس وبدأ الليل ينشر على الأفق الشرقى غلالة رقيقة سوداء، حتى أوقفنا

السيارة. وكذلك فعل ركاب السيارات الأخرى، ونزلنا نؤدى صلاة المغرب فى العراء..

واستأنفنا الرحلة موغلين فى وادٍ رحيب. ثم أخذ الطريق يعلو قليلا قليلا. وبدأ يظهر أمامنا وجه القمر سافرًا بين الجبال، وهو منظر رائع خلاب، فقد خيل إلينا والسيارة تنطلق صعدا أنها تحاول أن تصعد بنا لنعانق القمر فى أفقه الرفيع!

وبعد ساعتين من الغروب وصلنا إلى (السيل الكبير) وهى بلدة صغيرة بها بعض المقاهى للاستراحة والتزود من الطعام والشراب، فاسترحنا بها قليلا ريثما تناولنا الشاى وأدينا صلاة العشاء. ثم مررنا بالسيل الصغير وهى قرية أخرى من محاط الراحة والاستقاء.

وانطلقت السيارة تجتاز بنا منطقة جبلية وعرة المسالك، شقت الطريق فى كثير من أجزائها بين الجبال. وقبل أن نصل إلى الطائف بنحو ٣٥ كيلومترًا كان الطريق سهلا مرصوفًا حيث يقع مطار (الحوّية) وإلى الجنوب الشرقى منه يقع المكان الذى يرجع أنه كان فى الجاهلية موقعًا لسوق عكاظ.

***

والطائف مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٥١٠٠ قدم، ولهذا كان جوها من أصح الأجواء فى الصيف، وهى كذلك فى الشتاء. ولكن شهرتها فى الصيف جعلت منها أهم مصيف فى المملكة العربية السعودية.

وللطائف نصيب كبير فى تاريخ هذه البلاد منذ عهد الجاهلية؛ فقد كانت مقر عبادة أحد الآلهة. وإليها قصد محمد - ﷺ - فى فجر دعوته مستجيرًا من أذى قريش، حيث عرض على (ثقيف) دعوته وطلب منهم المنعة والنصر، ولكنهم أجابوه على دعوته تلك شر جواب، وأغروا به سفاءهم يرجمونه بالحجارة ويصيحون وراءه بالقول المقذع والسباب، حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة فاحتمى به من هذا العدوان الأليم، حتى رجع عنه السفهاء..

وجلس الرسول - ﷺ - إلى ظل كرمة وهو محزون مكروب. ثم رفع رأسه إلى السماء فى ضراعة وهو يقول:

- اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس.. يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى[1]، أو إلى عدو ملكته أمرى.. إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك. لك العتبى[2] حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك!

وكان يرقبه وهو على حاله تلك، صاحبا البستان..

فتحركت فى نفسيهما الشفقة عليه، وأرسلا إليه غلامهما (عداس) وكان نصرانيًا يقطف من عنب البستان.

---

(١) يلقانى بوجه عبوس كريه.

(٢) الرضى.

ووضع محمد يده فى العنب وهو يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

وفغر عداس فاه دهشة وقال:

- هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد!

فسأله محمد عن بلده ودينه فقال إنه نصرانى من (نينوى)، فقال له:

- أمن قرية الرجل الصالح يونس بنى متى؟

فازدادت دهشة عداس وقال:

- وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال: ذاك أخى.. كان نبيًا وأنا نبى..

فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه..

وكان صاحبا البستان ينظران هذا المشهد من بعيد، وقد أخذ منهما العجب مأخذه..

فلما عاد إليهما عداس، وعلما منه ما حدث قالا له:

- يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك، فهو خير من دينه.

وفى هذا المكان الذى لجأ إليه الرسول من ذلك البستان، يقوم الآن مسجد صغير فى بستان يملكه أحد أهل الطائف..

***

وفى العام العاشر للهجرة، عاد محمد - ﷺ - الطائف غازيًا، بعد أن دحر قبائل هوازن وثقيف فى موقعة حنين. ويذهب البعض إلى أن

مكان هذه الموقعة في المنطقة التى اجتزناها بين الشرائع والزيما حيث يقع وادى حنين، وكان ذلك بعد فتح مكة بنحو أسبوعين.

وفى هذا الوادى احتشدت القبائل برجالها ونسائها وأبنائها وأموالها، يقودها مالك بن عوف النصرى، تريد أن تدخل مع محمد - ﷺ - فى معركة فاصلة؛ إنها الجولة الأخيرة بعد فتح مكة، وإنهم ليرجون أن يحيلوا انتصار محمد إلى هزيمة، وبذلك يكون لهم الفخر على سائر العرب.

وانحاز المحاربون على القمم المشرفة على الوادى. وخرج المسلمون من مكة فى اثنى عشر ألف مقاتل يتقدم كل قبيلة علمها، ويهدر فى صفوفهم بأس النصر ونشوته، ويذهب الزهو بهذه الكثرة الغلابة فى عدتها وعديدها إلى أن يقول بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة!

قال جابر بن عبد الله:

- لما استقبلنا وادى حينين، انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوّف ذى خطوط كأنما تنحدر منه انحدارًا، وكان فى عماية[1] الصبح. فخرج علينا القوم وكانوا قد كمنوا لنا فى شعاب الوادى ومضايقه، فحملوا علينا حملة رجل واحد، وكانوا رماة، فاستقبلونا بالنبل كأنه جراد منتشر، لا يكاد يسقط لهم سهم. فكر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد. فوجدنا باب المضيق وقد سده رجل من هوازن على جمل له أحمر،

---

(١) قبل أن يسفر الصباح.

بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام هـوازن، وهـوازن خلفـه، إذ أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه..

وبدت طلائع الهزيمة فى جيش المسلمين. وشاع فى النـاس أن محمـدًا قد قتل!

وكان فى الجيش ألفان ممن أسـلم مـن أهـل مكـة بعـد الفتـح، وعلـى رأسهم أبو سفيان..

وكشفت هذه المحنة عن كثير من خبايا النفوس وخصائص الرجال..

إن أبا سفيان لم يستطع أن يخفى شماتته بالمسلمين فصاح هاتفًا:

– لا تنتهى هزيمتهم دون البحر!

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة، وكـان أبـوه قـد قتـل فـى غـزوة أحد:

– اليوم أدرك ثأرى من محمد..

وكان محمد – ﷺ – فى مؤخرة الجيش تمر عليه القبائل الواحدة بعد الأخرى مهزومة مولية الأدبار لا تلوى على شىء، فيصيح بهم الرسـول:

– أين أيها الناس أين ؟!

فلا يكاد يسمع له أحد..

ويعود الرسول – ﷺ – فيهتف قائلا:

– أنا رسول الله.. أنا محمد بن عبد الله .. أنا عبد الله ورسوله..

ثم يندفع ببغلته يخوض غمرات القتال فى صدر العدو الزاحف، فيمنعه أبو بكر، ويمسك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بخطام بغلته ويمنعها عن الانطلاق.

ووقف العباس بن عبد المطلب على ربوة عالية ينادى بصوته الجهورى:

- يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا..

يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة..

إن محمدًا حى فهلموا..

وردد الوادى أصداء هذا النداء، وتجاوبت مع النداء أصداء تتردد من كل مكان:

- لبيك.. لبيك!

وبدأت الفلول المنهزمة تتجمع وتزيد كالإعصار، لتواجه هوازن وثقيفا فى جولة رهيبة.

وقال الرسول: الآن حمى الوطيس[1]. إن الله لا يخلف رسوله وعده!

وصدق الله رسوله الوعد الحق، وانهزمت هوازن وثقيف تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.. اثنين وعشرين ألفا من الإبل، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف أسير!

---

(١) اشتدت الحرب.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

ومضى المسلمون فى أعقاب هوازن وثقيف، يطاردون فلولهم الهاربة حتى وصلوا إلى الطائف، وكانت مدينة منيعة ذات أسوار وحصون، فلم يكن ثمة سبيل لاقتحامها. وظل جيش المسلمين يحاصرها شهرًا كاملا. وأخذوا يقطعون ويحرقون الكروم والبساتين من حول الطائف وعليها حياة أهلها. فلما رأوا ذلك بعثوا إلى الرسول أن يأخذه لنفسه إن شاء، أو يدعه لله وللرحم..

واستمهل محمد - ﷺ - رجاله، ثم نادى فى ثقيف أنه معتق من جاء إليه من الطائف، ففر إليه نحو عشرين رجلا علم منهم أسرار المقاومة وما لدى القوم من ذخيرة سيطول معها أمد الحصار. فعزم على العودة إلى (الجعرانة) حيث سبقت الغنائم ليقسمها على أفراد جيشه قبل أن ينفد صبرهم.

---

(١) سورة التوبة.

وانصرف محمد - ﷺ - عن الطائف وقد توجه إلى الله بالدعاء، ودعاه القلب الكبير الذى لا تخالطه ذرة من الحقد أو سورة الانتقام، ولكنه يرجو الخير والهداية حتى لأشد أعدائه لددًا وخصومة..

قال - ﷺ - :

- اللهم اهد ثقيفا وائت بها!

***

ووصل الرسول - ﷺ - وصحبه إلى (الجعرانة). وهناك شهد المسلمون وشهد الأسرى منه آيات بينات..

إن إحدى السبايا واسمها شيماء من قبيلة بنى سعد، كانت تدافع الجند حين مرّ بها الرسول وتصيح به:

- يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة!

قال: وما علامة ذلك؟

قالت: عضة عضضتنيها وأنا متوركتك[1].

وعرف الرسول العلامة، وكان - ﷺ - وهو طفل يسترضع فى قبيلة بنى سعد. فغلبه التأثر ونزلت عبراته؛ وبسط رداءه فأجلسها عليه، وخيرها قائلا:

- إن أحببت فعندى محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك[2] وأرجعك إلى قومك فعلت.

---

(١) أضعك وأنت طفل على وركى.

(٢) أعطيك من المال ما تتمتعين به.

قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.

ففعل..

وأقبل وفد من هوازن عليهم شيخهم أبو صرد، فقال:

- يا رسول الله، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك[1] اللائى كن يكفلنك.

فسألهم الرسول:

- أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟

قالوا: يا رسول الله، ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهى أحب إلينا.

فقال الرسول - ﷺ - بصوت عال:

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم..

وما سمع المهاجرون والأنصار هذه الكلمة حتى قالوا:

- وما كان لنا فهو لرسول الله!

وأطلقت هذه الكلمة سراح ستة آلاف أسير..

وقال الرسول - ﷺ - لوفد هوازن:

- قولوا لمالك.. إنه إن أتانى مسلمًا رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل.

---

(١) جمع حاضنة وهى المربية.

وخرج مالك من الطائف مستخفيًا حتى أتى الرسول فأسلم بين يديه. وعاد بأهله وماله، بعد أن قلده الرسول الولاية على من أسلم من هوازن.

***

على أن بعض المسلمين هالهم أن يطلق الرسول - ﷺ - سراح الأسرى، وأن يهب من الغنائم من يأتيه مسلمًا من العدو فشغبوا[1] على الرسول وظلوا يتبعونه بالإلحاح أن يقسم بينهم الغنائم؛ حتى اختطف بعضهم رداءه..

فغضب الرسول - ﷺ - وصاح فيهم:

ردوا إلىّ ردائى أيها الناس، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعمًا[2] لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانًا ولا كذابًا.

ثم أخذ وبرة من بعير فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها قائلا:

- أيها الناس، والله ما لى من فيئكم[3] ولا هذه الوبرة إلا الخُمس[4] والخمس مردود عليكم.

وقسم الرسول الغنائم، وأجزل العطاء من خُمسه إلى الذين كانوا أشد الناس عداوة له، أعطاهم ذلك فوق أنصبتهم التى نالوها؛ فقد أعطى

---

(١) هاجوا عليه.

(٢) النعم: الإبل والشاء.

(٣) غنائمكم.

(٤) خمس الغنيمة لله بالرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة الأخماس للمحاربين

أبا سفيان وابنه معاوية وعليم بن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغيرهم، كلا منهم مائة من الإبل!

وما زال الرسول - ﷺ - يعطى ويعطى حتى كادت الغنائم على وفرتها أن تنفد، والأنصار ينظرون وينتظرون فلا ينالهم منها شيء..

وبدأ بعضهم يتهامسون فى مرارة:

- لقى والله رسول الله قومه!

وأبلغ سعد بن عبادة ذلك إلى الرسول فقال له: فاجمع لى قومك..

واجتمع الأنصار عند الرسول فقال لهم:

- يا معشر الأنصار، ما قالة[1] بلغتنى عنكم. وجدة[2] وجدتموها على فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟

قالوا فى صوت واحد:

بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

فقال لهم الرسول - ﷺ -:

- ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

---

(١) كلمة.

(٢) غضبة.

قال - ﷺ -:

- أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم ولصُدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك.

ثم قال: أوَجدتم[1] يا معشر الأنصار فى العلالة[2] من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟

- ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

- فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا[3] وسلكت الأنصار شعبًا لسلكتُ شعب الأنصار.

وقال الرسول - ﷺ - وصوته يتهدج من التأثر:

- اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار!

وفاضت أعين الأنصار بالدموع وهم يقولون:

- رضينا برسول الله قسما وحظا!

عودًا يارب

وقصدت إلى مكة لأزور المسجد الحرام وأطوف بالكعبة طواف الوداع. وكانت لحظات رائعة وأنا أتعلق بأستار الكعبة وأهتف من أعماق روحى:

---

(١) غضبتم.

(٢) بقية الشىء، فضلة.

(٣) الطريق، مسيل الماء، ماانفرج بين جبلين.

عوْدًا يا رب!

وكان دعائى فى الطواف ما رواه ابن عباس:

– اللهم إنـى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك. حملتنى على ما سخرت لى من خلقك، وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى – بنعمتك– إلى بيتك. وأعنتنى على أداء نسكى. فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا، وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى. فهذا أوان انصرافى إن أذنت لى. غير مستبدل بك ولا ببيتك، ولا راغب عنك ولا عن بيتك.

اللهم فأصحبنى العافية فى بدنى، والصحة فى جسمى، والعصمة فى دينى. وأحسن منقلبى. وارزقنى طاعتك – ما أبقيتنى، واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة. إنك على كل شىء قدير.

***

وعدت إلى جدة أتأهب للعودة إلى القاهرة..

وحلقت بنا (زمزم) قبيل الفجر فى سماء جدة، ثم انطلقت تأخذ مجراها نحو الشمال الغربى، حتى إذا لاح ضوء الفجر على أطراف الأفق البعيد، وما زالت الأرض من تحتنا تظلل أوديتها سحائب الظلام – أذن بيننا مؤذن أن حى على الصلاة!

موقف آخر من تلك المواقف الرائعة التى تملك العقل والقلب والوجدان. ونحن نؤدى الصلاة جالسين على مقاعدنا بالطائرة وهى تنطلق

بنا فوق مجارى السحاب، وكأننا نمارس تجربة روحية لا يزيدنا فيها انطلاق الطائرة بعيدًا بعيدًا إلا قربا من الكعبة، واندماجا فى جوها القدسى، وتعلقا بأستارها السوداء..

تجربة نفيد منها حين تغمرنا موجة الحياة الصاخبة، وتتجاذبنا تياراتها العاتية من جديد..

وحين كانت الطائرة تتهادى بنا فى سماء مصر الجديدة وهى تهبط رويدًا رويدًا، كان يهتف من أعماقنا صوت تبلله الدموع:

عودًا يا رب..

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير..

آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون..

صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله، والله أكبر، ولله الحمد!

مراجع الكتاب

١ — القرآن الكريم.
٢ — ابن القيم: زاد المعاد فى هدى خير العباد.
٣ — وزارة الأوقاف: الفقه على المذاهب الأربعة.
٤ — ابن هشام: سيرة النبى ﷺ.
٥ — الأزرقى: أخبار مكة.
٦ — محمد بن عبد القادر الأنصارى: درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج ومكة المكرمة.
٧ — أحمد السباعى: تاريخ مكة.
٨ — قطب الدين الحنفى: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام.
٩ — تقى الدين الفاسى: شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام.
١٠ — حسين عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة.
١١ — حسين عبد الله باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام.
١٢ — السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى.
١٣ — أحمد عبد الحميد العباسى: عمدة الأخبار فى مدينة المختار.
١٤ — ابن جبير: اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك.
١٥ — ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
١٦ — عبد الله برخارت: جولات فى بلاد العرب.
١٧ — إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين.
١٨ — محمد لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية.
١٩ — محمد حسين هيكل: فى منزل الوحى.
٢٠ — جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة.
٢١ — محمد كامل حته: فى أرض المعجزات.

رقم الإيداع ٢٠٠١/٤٥٠٤	الترقيم الدولى I.S.B.N 977-02-6119-X

١/٢٠٠١/١ (.طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع

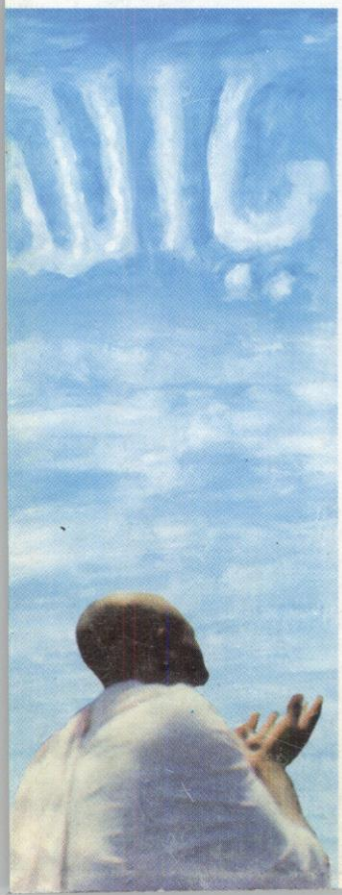

لبيك هتاف يردده الألوف حول الكعبة ، وبين الصفا والمروة ، وفوق عرفات ، وعند المشعر الحرام .. ويشاركهم مئات الملايين فى مختلف أرجاء الأرض بالتكبير والتهليل ، من فجر يوم عرفة إلى عصر ثالث أيام التشريق .

وهذا الكتاب يشرح مناسك الحج ، ويطوف مع القارئ فى زيارة لبيت الله الحرام .

دار المعارف

٤٠٣٣٢٥/٠٣